أمل سرور

أيام في إمارة أفغانستان الإسلامية

أيـــــــــــام في إمارة أفغانستان الإسلامية

أمل سرور

أمل سرور/ كاتبة وصحفية مصرية مرموقة، تخرجت من جامعة القاهرة عام ١٩٩١؛ ترأست قسم التحقيقات بمجلة نصف الدنيا، وعدد من الإصدارات العربية مثل «الشباب، المصري اليوم*، كما تولت الإشراف على صفحة «ابن بطوطة» المعنية بالكتابة عن الرحلات والأسفار بجريدة الأهرام المسائي.، كما عملت ضمن فريق جريدة الخليج الإماراتية ونشرت جزء من أعمالها الخاصة بأدب الرحلات على صفحاتها.

حصلت على العديد من الجوائز في مجال الصحافة والإعلام، مثل جائزة جامعة جون هوبكنز من الولايات المتحدة الأمريكية ١٩٩٨؛ جائزة نقابة الصحفيين المصريين عام ٢٠٠١ و٢٠٠٦؛ وجائزة مصطفى أمين وعلي أمين عن مجمل أعمالها؛ جائزة دبي للصحافة العربية ٢٠٠٦.

****

طبعة ٢٠٢٣

جميع الحقوق محفوظة ©

عدا حالات المراجعة والتقديم والبحث والاقتباس العادية، فإنه لا يسمح بإنتاج أو نسخ أو تصوير أو ترجمة أي جزء من هذا الكتاب، بأي شكل أو وسيلة مهما كان نوعها إلا بإذن كتابي.

No part of this book may be reproduced or utilized in any from or by means electronic or mechanical including photocopying recording or by any information storage and retrieval system without prior permission in writing of the publishers.

****

الناشر:محمد البعلي

إخراج فني :علاء النويهي

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبِّر بالضرورة عن رأي دار صفصافة.

****

الإهداء

إلى والدي وأمي ووحيد
عليهم السلام أينما يرقدون.
وإلى الورقة والقلم والحنين إلى المجهول.
****

شكر واجب

سطور هذا الكتاب ليست ملكي وحدي بل هي ثمرة جهد ودراسة ومخاطرة ومغامرة، خططها وحلم بها معي رفيق الدرب والمشوار والشقا الفنان المصور محمد مسعد، الذي كان يكتب ويسطر ويحكي ويسرد بعدساته وكادراته المميزة النادرة، التي كادت في أحيان كثيرة أن تفقدنا حياتنا وتحكم علينا بالموت على الأراضي الأفغانية بين كلاشنكوف حركة طالبان.
كل الشكر والاحترام والتقدير للفنان محمد مسعد.

إلى بلاد الدبابات والمخدرات

انتبه صديقي القارئ.. هذه الأحداث حقيقية وواقعية ولا تنتمي لعالم الخيال، فقط استعد لأن أصحبك معي في رحلة طويلة وشاقة ومحفوفة بالمخاطر ومكللة بالأشواك.
وأعدك بأنها لن تخلو من المتعة والإثارة، وربما تجيب على العديد من علامات الاستفهام التي تلاحقك، وربما تجد الكثير من علامات التعجب تطاردك.
لا أظن أنني تأخرت كثيرًا.
عشرين عامًا فقط.
وكأن الرحلة كانت بالأمس القريب.
ورقة وقلم ورؤية ما، وحنين إلى المجهول، غموض واستفهام، إبهام وتعجب، أصوات متداخلة من بعيد، همهمات مشجعة ونبرات عالية محذرة حلمًا يهدهدني فأجد قدميّ وقد حطتا على سطح القمر! وكابوس يدفعني دفعًا إلى أحضان *زحل*.
وجوه تداري خوفها بابتسامة هادئة مصطنعة، وعيون تشير إلى بأصابع الجنون، نظرة الوداع الأخيرة من شباك الطائرة الصغير، ودمعة متسائلة على الخد: ماذا يخفي هذا المجهول؟ وإلى أين يأخذني وهل هناك طريق للعودة أم أنها المرة الأخيرة؟
هكذا حلقت بي الطائرة وزميلي المصور الفنان محمد مسعد فوق القاهرة نودعها ونعرف أن أهوالًا لا محالة في انتظارنا.
على كف الرحمن شعار رفعناه منذ اللحظة الأولى التي أخذنا فيها قرارنا بخوض معركة الدخول إلى إمارة افغانستان الإسلامية عام ٢٠٠١.
جنون، مغامرة، مقامرة، فضول، قلوب ميتة *مستبيعة*، رغبة في الانتحار والتخلص من زمن رديء حكم علينا أن نعيشه. حقًّا لا أعرف وليس لدي معلومات كافية حتى هذه اللحظة، ولم أفكر في تصنيف ما فعلناه، فقط وجدت نفسي جالسة على مقعد الطائرة وعلامات الاستفهام تحاصرني والأحلام تكاد تأكل رأسي، وأمنية العودة إلى الدور الخامس بمبنى الأهرام وتحديدًا إلى غرفة الأم والفنانة والأستاذة سناء البيسي التي كانت ترأس تحرير مجلة *نصف الدنيا*، بيتي الأول والأشهر والأسمى والأحب إلى قلبي، والذي تعلمت فيه وعلى يديها فن البحث عن المجهول. تلك الغرفة لم تفارق أحلامي طوال رحلاتي إلى أخطر الأماكن في العالم وأكثرها سخونة، وفي مقدمتها أفغانستان بالعودة إليها بصيد ثمين متفرد بالكلمة والصورة، فقط من أجل أن أسمع من بين شفتي صاحبة الجلالة *سناء البيسي* كلمة *براااافو حبيبتي*.
بقدر صغر الكلمة وبساطتها، بقدر عذوبتها وقوتها ودعمها اللامحدود الذي كان يدفعني دفعًا إلى تحمل كل ما يتصوره ولا يتصوره عقل.

قد يتبادر إلى ذهنك قارئ سطوري سؤال بديهي لماذا أفغانستان الآن؟ ولماذا تستعيدين رحلاتك إليها بعد أن مر عليها عشرون عامًا بالتمام والكمال؟
الإجابة سهلة وبسيطة وربما تصيبك بالدهشة عندما تعرف بأنني كنت في حالة انتظار وتأهب ويقين بأن *طالبان* ستعود لا محالة إلى حكم تلك البلاد، رغم أنني كنت شاهد عيان على سقوطها المذري والسريع على أيدي قوات التحالف الشمالي، بل إنني رحلت إليها أيضًا مرة أخرى لأكون المراسلة الحربية في حرب أمريكا العسكرية عليها.
لذا لم يقع عليّ خبر تسليم البلاد الأفغانية قبل شهور إلى الحركة الطالبانية كالصاعقة كما حدث مع الكثيرين، بل ضحكت من قلبي بعد أن كنت قد ظننت أنني نسيت الضحك، ولم أملك سوى أن أفتح أوراقي وأستعيد ملفاتي لأضع بين أيديكم ثمرة رحلاتي إلى بلاد *الدبابات والمخدرات* ليزداد يقيني بالمقولات الشهيرة *ما أشبة الليلة بالبارحة*، *والتاريخ يعيد نفسه*، *والمصالح بتتصالح* *طالبان وأمريكا وجهان لعملة واحدة*.
والأهم والأخطر أني أجعلك تقترب من الفهم وهو أمر شديد الأهمية، ولن يحدث إلا إذا توصلنا سويًّا للحقيقة التي ربما تكون غائبة عن الكثيرين، وهي أن الوجوه الطالبانية قد تغيرت شكلًا وملامح لكن العقول ما زالت تحتفظ بصبغتها وتفكيرها الطالباني الأصيل، وهو ما أحاول أن أجيب عليه من خلال سؤالين في غاية الأهمية. الأول: ماذا فعلوا؟ والثاني: كيف يفكرون؟
أسئلة كثيرة حملتها معي في رحلتي الى أفغانستان تلك البلاد المركبة التي أصفها بالسهل الممتنع، المعلومات المتداولة عنها بسيطة وتشدك مثل *أفغان* حفيد بنيامين بن يعقوب عليه السلام، الذي رحل مع أبنائه لأربعين عامًا عندما حلت الكارثة على بني إسرائيل، أو ما يقال إنها بلاد منحوتة في الصخر اعتلت هضابًا وجبالًا شماء، والتي يطلق عليها بعض الجغرافيين سقف العالم، وبلاد الإسلام المعلقة.
وربما تقترب من الحقائق الجوهرية في أفغانستان، إذا علمت أن الجبال الصخرية والوحشية تركت بصماتها على الناس، الذين تربوا على قسوة الطبيعة وجبروتها، تلك البلاد التي قهرت أكبر وأشهر الغزاة منهم الإسكندر الأكبر وجنكيز خان وتيمورلنك ونابليون بونابرت الذي أرسل مبعوثًا إلى كابول ليمهد لفتح الهند، ولم ينجح في مسعاه، وجيوش قياصرة الروس والإمبراطورية البريطانية، جميعهم مرت جحافلهم فوق صخور أفغانستان .
أما عن الديانات فحدث ولا حرج، فقد تتابعت عليها البوذية والزرادشتية والمسيحية النسطورية، وحتى عبادة النجوم والأوثان، وقد دافع أهل هذه البلاد عن دياناتهم تلك بشراسة، إلى أن وصل إليهم الإسلام في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، ومن بعده عثمان بن عفان، إلى أن استقر وتمكن على أرضها في منتصف القرن الثاني الهجري، ليصبح الأفغان رافعي لواء الإسلام في آسيا.

أفغانستان يتعايش فيها ما يقرب من ٢١ عرقًا وملة، إذ سمحت الطبيعة الجغرافية لتلك الكيانات أن تحتفظ باستمرارها وتماسكها، فاحتمت بها مختلف الأعراق، أهمها على الإطلاق البشتون التي ينتمي إليها أغلب عناصر حركة *طالبان* ليأتي بعدهم الطاجيك الذين تنتمي إليهم قوات التحالف الشمالي التي كان يرأسها أحمد شاه مسعود العدو اللدود للطالبانيين.
ولا تخلو أفغانستان من بعض الأعراق الصغيرة الأخرى مثل الشيعة والفارسوان والأوزبك والإياق وهم الأقرب للعنصر التركي والبلوسش والمغول والتركمان والكوجار والسيخ.
ويظل الإسلام هو القاسم المشترك بين الجميع على الأرض الأفغانية، وهو ما يجعلنا على يقين بأنه ليس دينًا فحسب بل هوية جامعة، يحتضن من خلالها مختلف الأعراق. ولذلك ظل التمسك به من قبل الأعراق كافة أمرًا شديد الأهمية والخصوصية.
وهنا نتذكر جيدًا ما قاله جمال الدين الأفغاني عن دور الدين ورجاله في حياة الأفغان: *لديهم تعصب شديد للدين والمذهب. وجميعم يدينون بمذهب أبي حنيفة لا يتساهلون رجالًا ونساء، وحضريون وبدويون، في الصلاة والصوم وكل أفغاني يزعم أنه لا يوجد الإيمان الكامل والإسلام الخالص إلا في جنس الأفغان، يحكمون بتكفير بعض الأشخاص أو بفسقهم، إذا رأوا منه ما يخالف أهواءهم، بل قد يكفر بعضهم بعضًا حبًّا للانفراد بالرئاسة*.
خلفية شديدة الأهمية لم تفارقني طوال رحلتي إلى البلاد الأفغانية في الحقبة الطالبانية منذ عشرين عامًا، والتي كما قلت من قبل لم ولن تختلف كثيرًا عن تلك الفترة التي عاد بها رجال *طالبان* للحكم برعاية أمريكية هذه المرة، تلك الخلفية المبسطة التي قد يتعامل معها الكثيرون ببساطة شديدة، ليتجاهلوا عمق دور الدين وعلمائه في أفغانستان، وذلك لا يتعارض مع حقيقة أن ذلك الدور يتم استثماره وتوظيفه بشكل خطير من قبل دول مختلفة وجهات أخرى لصالح سياساتها وأطماعها ليس في أفغانستان فحسب بل في المنطقة بأكملها.
حقائق ومعلومات وأحداث تاريخية رافقتني ولم تفارقني لحظة طوال رحلتي إلى أرض إمارة أفغانستان الإسلامية، تلك البلاد التي تكره النساء، وتعتبر المرأة شيطانًا يمشى على قدمين بل فضيحة يجب تجنبها وإخفاؤها.
مغامرة بكل المقاييس، فكيف يمكن أن تقبل تلك العقول أن تأتي إلى أرضها صحفية ومصور ليتجولا في شوارعها ويحاورا قاداتها، مسألة تبدو بأنها نهاية الدنيا أو علامة من علامات الساعة.
ليس مهمًّا على الإطلاق أن نقول دخلنا أفغانستان، ولكن الأهم هو ماذا هناك على تلك الأرض التي تسيل عليها الدماء منذ زمن؟ كيف يعيش الأفغان تحت حصار اقتصادي قاتل وحالة من الجوع والفقر والتشرد تنقلها لنا وكالات الأنباء يومًا بعد يوم؟ ما حكاية حركة طالبان وما حقيقتها؟ كيف يفكر رجالها؟

وما هو منطقهم في تدمير الآثار التاريخية عندما فجروا بالديناميت تماثيل بوذا التي حُفرت بين ثنايا صخور جبال مدينة *باميان* تلك التي اعتبروها أصنامًا يعبدها الكفار؟ وما مقياس الكفر والإيمان لديهم؟
وهل كل ما تناقلته وسائل الإعلام في تلك الفترة صحيح؟ هل كل ما وصل إلى مسامعنا من إغلاق مدارس الفتيات وتحريم خروج السيدات إلى الشوارع، وقتل الأجانب، واغتصاب المرأة الأجنبية بمنطق أنها كافرة، وإباحة زراعة الأفيون والمخدرات بمنطق أنه يصل إلى الأمريكان ويقضي على عقولهم هل كل هذه المعلومات صحيحة؟
وماذا عن أخبار هذا الرجل الذي كان وقت رحلتي على قيد الحياة مختبئًا خلف الجبال الأفغانية ومحتميًا برجال *طالبان*، أسامة بن لادن الذي ترك ملايينه وأملاكه ليستقر على تلك الأرض؟ هل صحيح أن أسامة بن لادن باع ابنته وقام بتزويجها لأمير المؤمنين وقتها *الملا عمر* ثمنًا لحمايته وعدم تسليمه إلى أمريكا؟
وما الذي جعل أمريكا تنقلب على رجالها من *حركة طالبان* بهذا الشكل، فتتحول من المساند والممول والمؤيد إلى المحارب والمحاصر والمعارض؟
وهل زُرعت حركة طالبان لتكون قوى سنية مسلمة في مواجهة ساخنة لنظيرتها المسلمة الشيعية إيران؟
ما شكل مدينة كابول وقندهار وما حكاية لقب الملا وأمير المؤمنين، والفتاوى التي نسمعها يومًا بعد يوم؟
هل ننجح في أن نفتح قلب *رجل آسيا المريض* نخترق هذا المجهول ليصبح كتابًا مفتوحًا بين أيديكم؟
هل يعطينا «رجال حركة طالبان» الفرصة لرؤيتهم وسماعهم عن قرب، هل يسمحون لي بصفتي فتاة الدخول إلى عالمهم بل والجلوس أمامهم والتحاور معهم ومع مسؤوليهم ووزرائهم؟
وهل يمنحون *محمد مسعد* زميلي المصور، فتوى تحلل التصوير وإذا حدث وتحق الحلم هل سأستطيع أن أنقل ما رأيته وما سمعته عن قرب؟ هل ينجح القلم أم يقف عاجزًا؟
هل سأفلح في محاولة نقلك من منزلك أو مكتبك، أو غرفة نومك لتسافر معي وتخوض التجربة.. تعيشها لحظة بلحظة، تحزن، ويعلو ضغطك، وتفرح، وتندهش، وتبكي بحرقة، وتشعر بقسوة الحر، وبرودة الأعصاب، ولا مانع أن تشعر بأنك مراقب من آخر مجهول حتى وأنت نائم مراقب في أحلامك؟
وها أنا لا أملك سوى عبارتي الأثيرة لأختم بها مقدمة سطوري:
لتكن محاولة إن نجحت فقد أضافت لي ولك، وإن فشلت فالتمس لي عذرًا وليبق لي شرف المحاولة.

أمل سرور
بيت أبويا، الحضن والدفا

نوفمبر ٢٠٢١

١

كلمة السر *بندي*

الرحلة طويلة وشاقة، والخيوط متشابكة كثيرة التعقيد والحديث عن إمارة أفغانستان الإسلامية يشبه الطريق إليها تمامًا، وعرًا مفروشًا بالألغام والفخاخ والأحجار، ومن يفكر بالسير فهو لا محالة مكلل بتاج من الأشواك.

من أين أبدأ؟ وكيف تكون نقطة الانطلاق؟

بقدر سهولة التساؤل، كما يبدو، بقدر صعوبة الإجابة وحيرتها ولكن لا مفر، لتكن البداية هنا قبل أن نخوض غمار الرحلة بـ ٣ سنوات، وتحديدًا عندما انهارت أحلامي وتحولت إلى عالم من المستحيل أمام أبواب السفارة الأفغانية في دولة باكستان، عندما كنت في زيارة لها ضمن رحلة من رحلاتي وتحديدًا عام ١٩٩٩.

وقتها عدت إلى القاهرة أجر ذيول الخيبة وأتجرع الفشل والحسرة، عندما رفض المسؤولون في سفارة أفغانستان -وهم من حركة *طالبان*- منحي تأشيرة الدخول إلى إمارتهم الإسلامية لأنني امرأة وهم لا يسمحون للسيدات بالعمل والخروج في الشوارع.

اكتفيت وقتها بالعمل الذي تم إنجازه في دولة باكستان، ونشر على صفحات *مجلة نصف الدنيا* واكتفيت أيضًا بالسفر إلى مدينة بيشاور، آخر مدينة على الحدود الباكستانية الأفغانية، وزيارة آلاف مؤلفة من خيام اللاجئين الأفغان الفارين من حركة *طالبان* على الحدود الباكستانية.

لم أنجح في التخلص حقًّا من مرارة الفشل الذي دام طيلة ٣ سنوات، وكان لدي إحساس يصل لدرجة اليقين بأنني يومًا ما سأتذوق حلاوة النجاح.

كنت أعرف أننى سأدخل يومًا ما وسأرتدي *الشادوري*، الزي الذي ترتديه المرأة الأفغانية، وأجول في شوارع كابول أتفقد بعيني وأنقل وأرصد الصورة عن قرب، ولكن كيف ومتى لا أعرف!

ولأنني أومن تمامًا أن كل شيء، بأوان وأن *المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين*، و*في النهاية كل شيء نصيب* و*كل تأخيرة وفيها خيرة*، فما كان مني سوى الانتظار.

وقد كنت كعادتي أبحث صباح كل يوم عن آخر أخبار ما يدور في أفغانستان، وما تفعله حركة *طالبان*، أنقب بإبرة عن ذلك الصاروخ المسمى بأسامة بن لادن، أعبئ نفسي وأشحنها يومًا بعد يوم إلى أن كانت الصاعقة التي نزلت على كل دماغ، في العالمين العربي والإسلامي، بل والعالم بأكمله ألا وهو خبر تدمير حركة *طالبان* تماثيل بوذا في مدينة باميان، لينقلب العالم رأسًا على عقب، وتنهال المقالات والتقارير والأخبار، ووفود إسلامية رايحة وجاية لإقناع أمير المؤمنين الحاكم بأمره في الإمارة الأفغانية *الملا عمر* بعدم التدمير، ومن بين الوفود كان مفتي جمهورية مصر العربية والشيخ يوسف القرضاوي.

وباءت كل المحاولات بالفشل، وعادت الوفود، وفتحت النار على بعض آراء المفتي والقرضاوي الخاصة بسياسة حركة *طالبان* وموقفها من إغلاق مدارس الفتيات وتدمير التماثيل.
إذن فلقد آن الأوان الآن، لا وقت نضيعه أكثر من ذلك، علينا المحاولة ولا بديل عنها، هكذا التقت أفكاري مع الزميل المصور محمد مسعد. *أفغانستان الآن*، هكذا قلنا وهكذا كان القرار، مهما كان الثمن ومهما كانت المغامرة محفوفة بالمخاطر.
جميل ورائع أن تأخذ قرارًا ولكن السؤال: كيف تنفذه؟ وهنا مكمن الصعوبة والمشقة بل والذل الذي رأيناه.
مبدئيًّا، أفغانستان دولة مثل أي دولة دخولها يحتاج إلى تأشيرة ولكن كيف؟ ليس أمامنا سوى أبواب السفارة الباكستانية في القاهرة فلنطرقها ونرى!
دون تردد كنا أمام المستشار الإعلامي بسفارة باكستان وقتها *أحمد شفق هاشمي*، الذي أصيب بسكتة كلامية لا توصف بعد أن عرضت عليه رغبتي في السفر إلى أفغانستان، ملامح وجه الرجل كانت كفيلة بأن أغادر مكتبه على الفور وأتجه إلى منزلي لأوصد أبوابه عليّ بإحكام ولكني لم أفعل.
ناقشنا الرجل كثيرًا في فكرة السفر وحاول أن يثنينا عن القرار، وعلى حد قوله باللغة العربية المكسرة: *في مصيبتين، الأولى إنك واحد ست وبتشتغل عايزة تقعد مع رجال طالبان وأنت تعرف موقفهم من المرأة، والثانية إن التصوير عندهم *هرام* أنتم أكيد مجانين*.
لم نلتفت كثيرًا لكلام *شفق هاشمي*، فقط أنه أصابنا ببعض من الإحباط والربكة التي سرعان ما تغلبنا عليها، خاصة بعد أن أخذنا منه وعدًا بالحديث مع المسؤولين في وزارة الإعلام في مدينة إسلام آباد في باكستان، ومعرفة نوعية المساعدة التي سيقدمونها إلينا خاصة أن *العلاقات بين باكستان وأفغانستان* سمن على عسل.
أسبوع ونحن في حالة من القلق والانتظار، أسبوع وجاءنا الرد مباغتًا صاعقًا من وزارتي الإعلام والخارجية الباكستانية بأنهما لا يملكان أي حكم على السفارة الأفغانية، وليس بأيديهما أي مساعدة او تسهيل أو حتى توصية لكي نحصل على التأشيرة من أرض باكستان.
إذن ما العمل؟ هل نسافر ونتوجه مباشرة إلى السفارة الأفغانية في باكستان أم ماذا؟ ولكن ما زال هناك باب لم نطرقه ونحن ما زلنا على أرض القاهرة.
أدير قرص التليفون ليجيئني الرد مباشرة: استعلامات، آلو مساء الخير.
- من فضلك أريد أرقام تليفونات سفارة أفغانستان..
بسهولة كانت الأرقام في يدي، وسرعان ما فعلتها فجاءني صوت مدام سهر.
قلت لها على الفور: أريد أن أتحدث مع السفير أنا فلانة الفلانية وبشتغل كذا وأريد الحديث معه.
هو اسمه إيه؟ هكذا سألتها.

السفير فضل الله، هكذا أجابت، ساعة وعاودي الاتصال به.
في الموعد كان الرجل يتحدث معي تليفونيًّا، حديث أتذكره جيدًا وأنقله لكم بالحرف:
- سيادة السفير.. أنا محررة صحفية بمجلة *نصف الدنيا*، أريد السفر إلى أفغانستان ولا أعرف كيف؟ هل يمكن لي الدخول لو حصلت على تأشيرتكم؟
- ولماذا تريدين السفر؟
- لأنني ببساطة أريد أن أرى الأمور عن قرب في محاولة لنقل ما يجري على أرض أفغانستان، محاولة للفهم.
- ولكن الوضع صعب هناك. حرب ودمار وقتل ليس أمانًا على الإطلاق، ثم إن رجال حركة *طالبان* يُحرمون عمل المرأة وتعليمها وحتى مجرد خروجها للشارع، هؤلاء همج، ليس لديهم أي تفاهم ولا مانع عندهم من قتلك أو اغتصابك، مهمتك ستكون فاشلة ولن تجني منها سوى المشاكل والهموم وقد لا تعودين إلى أهلك مرة أخرى.
أصابني الرجل في مقتل وكدت أن أجن.
صمتُّ كثيرًا ولا أعرف لماذا تحدثت إليه باستفزاز قائلة: أنا عارفة كل الكلام ده، لكن سؤالي ببساطة هل تأشيرتكم معترف بها، يعني لو شافوها على الحدود هيدخلونا؟
- تعرفين أن مصر لم تعترف بهم. ونحن من الحرس القديم كما يقولون!
قاطعته:
- يعني من أنصار أحمد شاه مسعود.
- بالضبط يعني ببساطة مش هيدخلوكم.
- مفيش أي طريق تاني؟
- الحالة الوحيدة هي أن أعطيك التأشيرة ولكن بعد موافقة وزارة الخارجية، وأمن الدولة، والمخابرات، ولكن دخولك سيكون من ناحية *طاجيكستان* وهذه الدولة ليس لها سفارة في مصر ولا في باكستان وإنما في الإمارات، وتأشيرة دولة الإمارات في حد ذاتها في منتهى الصعوبة، قد تتأخر بالشهور وبالسنة، أقولك أحسن لك إنك ما تسافريش إيه اللي دخلك في الخطر ده، ما تعملي موضوع عن الأزياء ولا الماكياج مش أنتم برضه مجلة نسائية.
كدت أغلق السماعة في وجه الرجل ولكني تماسكت وقلت له:
- واضح أن كل معلوماتك عن *نصف الدنيا* أنها مجلة أزياء وماكياج، وده طبعًا لأنه واضح كده إنك مش بتقرأ ولا بتتابع أو إن القراءة مش من هواياتك، رغم إن حضرتك سفير أو حتى سفير سابق شكرًا ومع السلامة. لم أنتظر ردًّا وللحق أغلقت سماعة التليفون.
سوداء الدنيا وقاتمة، ليس كل ما يتمناه المرء يدركه، مالي أصطدم دائمًا بالمستحيل أم أنا التي أهرع بنفسي دائمًا في دائرة من المستحيلات، نجح السفير أن يجعل تلك الحالة تتملكني بل وتحاصرني، ونجحت في أن أصدّرها

تمامًا لزميلي المصور الذي كان يعد العدة ويحلم هو الآخر بالتقاط كادرات متميزة من داخل أفغانستان.
كلمة *لا* تجعلك تهرب من المواقف الصعبة بمتعة ولذة وراحة.
باختصار لم نقصر، فقد كان من اليسير أن نرفع هذا الشعار ونعدل عن فكرة السفر من الأساس، خاصة أن كل الأصوات القريبة والبعيدة تحذرنا حتى الإحباط وترعبنا حد اليأس وتتهمنا بالجنون وتضع نتائج مسبقة بالفشل الذريع غير المشكوك فيه.
فكرنا فعلًا.. وكدنا أن نقرر بأنه لا فائدة، سيظل الحلم مؤجلًا مثله مثل كثير من الأحلام ولكن أبدًا لم نستسلم، ماذا لو أخذنا القرار بالسفر وركبنا الطائرة واتجهنا إلى سفارة *أفغانستان* في مدينة إسلام آباد هل سيعلقون لنا المشانق؟ هل سيصلبوننا مثما حدث مع سبارتكوس؟ هل سيفتحون علينا نارهم وصواريخهم فتروح أجسادنا أشلاء مثلما فعلوا مع *تشي جيفارا*؟ ما الذي سيحدث؟ الصورة سيئة وقاتمة وسوداء، ولكن بالتأكيد هناك وجه آخر لا نراه فلنجرب إذن «العمر واحد والرب واحد»، ولو مكتوب لنا أن ندخل أفغانستان هندخل، ولو مكتوب لنا العودة للقاهرة وذيول الخيبة تتبعنا سنعود، دائمًا المجهول مخيف ومرعب ومرهب ولكن لأنه مجهول إذن فلنفعلها وليكن توكلنا على الله سبحانه وتعالى.
فكان القرار ثنائيًّا ديمقراطيًّا لنسافر ونرى بأنفسنا.
قبل أن نغادر بيومين.. فتح لي أحد الخبثاء طريقًا صغيرًا، لن أفصح عن اسمه أو مهنته، ولكنه سهل لنا الكثير وأراح صدورنا نوعًا ما، عندما قال إن الدخول إلى أفغانستان من أسهل ما يمكن، ودون اللجوء إلى السفارة الأفغانية عن طريق التهريب وكلمة السر *بندي*، مدينة باكستانية تبعد ٢٠ كيلومترًا عن العاصمة إسلام آباد، هناك يكثر محترفو التزوير من حاملي الجنسية الأفغانية.
من السهل أن أرتدي «الشادوري» الذي لا يظهر شيئًا من ملامح المرأة وأضع صورتي على جواز سفر أفغاني مزور، ويرتدي «محمد» الزي الأفغاني، كل هذا بـ١٠٠ دولار، ونقوم بتأجير شخص أفغاني مجهول ولكنه مضمون بمبلغ ٢٠٠ دولار، وفي لمح البصر سنجد أنفسنا بالداخل.
لا حل بديلًا، سنسافر إلى باكستان وهناك سندبر الأمر. ودعتنا صاحبة الجلالة أستاذتنا *سناء البيسي* بصوت قلق وقلب متوتر دقاته، استطعنا أن نسمع نبضاته جيدًا، وبكلمات من الدعاء لا تنتهي، وجدنا أنفسنا نستسلم لأحلامنا على مقعد الطائرة المتجهة إلى دولة باكستان، سافرنا على *كف الرحمن* لا نملك تأشيرة الدخول إلى أفغاستان ولا نعرف هل سيمنحنا رجال طالبان في السفارة الأفغانية تأشيرة الدخول، أم سنلجأ إلى الهروب والتسلل عبر *بندي*؟
ولكن كل ما نعرفه ونستطيع قوله إننا سافرنا وبداخلنا قرار قاطع بأننا لن نعود إلى مطار القاهرة إلا بعد أن ندخل إلى الأراضي الأفغانية مهما كان

الثمن، لن نسمح للفشل أن يتمكن منا والحق لم يكن شغلنا الشاغل هو فكرة الدخول أو سؤال أنفسنا سندخل أم لا، بقدر ما كان همنا الأساسي والثقيل هو بماذا سنعود، وكيف نستغل الفرصة التي قد لا تكرر ثانية، وهل حصيلة المعلومات التي سنجمعها سوف تستحق، وهل تحمل جديدًا ومثيرًا لتجيب على علامات استفهام تدور في أذهان الجميع؟
إذن لا نملك سوى أن نتوكل على الله.

٢

رسالة الله

كاميرا صغيرة في حجم القلم، حوار طويل وسط الجبال مع أسامة بن لادن، لقاء عابر مع أيمن الظواهري. جلسة ساخنة مع أمير المؤمنين *الملا عمر*، بالعين المجردة معسكرات تدريب الإرهابيين تحت الأرض، مزارع الأفيون والمخدرات، تماثيل بوذا المدمرة في مدينة *باميان*، وزراء الخارجية والصحة والتعليم والإعلام، لقاءات متفردة مع السيدات من وراء *الشادوري*.

فقط نعبر الحدود، تلمس أقدامنا أرض الإمارة، أحلام لم نملك سوى أن نتبادلها ونحن نحتسي القهوة في مطار أبو ظبي الدولي، انتظارًا لموعد إقلاع طائرتنا المتجهة إلى مدينة إسلام آباد العاصمة الباكستانية.

معدات التصوير التي يحملها الزميل المصور، كانت تشكل همًّا وعبئًا ثقيلًا على عاتقنا، إذ أين نتركها لو حدثت المعجزة وحصلنا على التأشيرة؟ وبعيدًا عن ثقل حملها هنالك، ما هو أهم وأخطر أنهم يحرمون التصوير كما نعرف أو بالأحرى كما نسمع، فكيف يخرج «محمد» تلك العدسات ليلتقط بها خلسة دون أن يدري به أحد؟

مشكلة ولكن بالتأكيد لها حل. ثلاث ساعات في مطار أبو ظبي الدولي كانت كفيلة بجولة لا بأس بها بين محلات الأسواق الحرة، وتحديدًا تلك الخاصة بكل ما يمت بصلة إلى فن التصوير. كانت عين محمد تقع على أصغر الكاميرات المعروضة، إلى أن أشار بأصبعه إلى شيء صغير في حجم القلم أخرجته الفتاة الفلبينية المسؤولة عن البيع.

«هي دي»، هكذا تحقق حلمنا الأول، كاميرا صغيرة في حجم القلم، يستطيع بها زميلي التقاط ما يحلو له خلسة ودون أن يدري به أحد. حاولنا أن نفهم أكثر عن طريقة عملها من تلك الفلبينية، ولكنها للأسف تتكلم الإنجليزية بشكل مشوه وضعيف، لم نفهم ولم يكن لدينا متسع من الأنفاس، سألتها بصوت هادئ عن شخص يتكلم بالعربية، قبل أن أكمل حديثي جاءنا صوت قائل:

أي مساعدة أقدر أقدمها؟

رجل مجهول مصري ويفهم أيضًا في التصوير سرعان ما تبادل الحديث مع محمد، وأرشده إلى بعض تفاصيل هذه النوعية من الأدوات. لحظات وكنا نشتري هذا القلم الخفي التفتنا لم نجد الرجل، وحتى لم نعرف اسمه، كما يقولون *فص ملح وذاب*.

وكأنها رسالة من الله سبحانه وتعالى تحمل بين طياتها إحساسًا بالأمان، اقتحمت قلوبنا لتنهي جزءًا كبيرًا من رهبتنا وخوفنا، وكأنها أعطتنا وعدًا بتوفيق خفي، تذكرت معها مثلًا دائمًا ما كانت تقوله أمي *اللي تخافي منه ما يجيش أحسن منه*.

لم ينهكنا السفر الطويل، بقدر ما سببته لنا أحلامنا من تعب جسدي ومعنوي لا يوصف. مع نسمة هواء باكستانية في الصباح الباكر حين وصلنا، لم ندر بأنفسنا، رحنا في نوم عميق بعد أن ألقينا بجسدينا المنهكين في أحد الفنادق بمنطقة *بلو إيريا* في العاصمة الباكستانية إسلام آباد، وكأننا نودع النوم استعدادًا لأيام عصيبة قادمة.

٣

ذقون وعمامات سوداء

بمنطق(نعمل اللي علينا)توجهنا إلى وزارة الإعلام بإسلام آباد، نقصد شخصًا بعينه كان قد أعطانا اسمه المستشار الإعلامي بسفارة باكستان في القاهرة.
قابلنا الرجل ببرود يحسد عليه، تبادل معنا حديثًا تقريبًا كان من طرف واحد وإجاباته تلغرافية بحتة ولم يقدم جديدًا. إجابته كانت *لا نملك تقديم المساعدة، أمامكم السفارة الأفغانية*. حتى عنوان سفارة أفغانستان رفض أن يعطيه لنا قائلًا: أي تاكسي يعرفه. وعندما سألته عن المسافة من بيشاور، آخر مدينة في باكستان إلى العاصمة الأفغانية كابول أجاب بأنه لا يعرف.
أحسسنا أننا ضيعنا كثيرًا من وقتنا، وقررنا أن نواجه الموقف بأنفسنا ونتوجه في الصباح الباكر إلى سفارة أفغانستان لعل.. وعسى.
الزي الباكستاني .. الحل.
هل نذهب إلى سفارة أفغانستان بالزي الرسمي؟
بمعنى هل يرتدي محمد، الزي الرجالي خاصة أنه قد أطلق لحيته قبل السفر بيومين. وهل أرتدي أنا ما يطلقون عليه *الشادوري* والذي يجعل المرأة بلا ملامح؟
تناقشنا ليلة كاملة في هذا الأمر استقر محمد على أن يذهب كما هو، مصور صحفي عربي مسلم يرتدي بنطلونًا وقميصًا، بينما قررت ارتداء الزي الباكستاني، بنطلون واسع وبلوزة فضفاضة مطوية وإيشارب أحكمته على رأسي حتى لا يظهر منه ولو حتى خصلة واحدة.
نظمنا الأدوار وعرفنا كيف سنتصرف ونرتب الأمور. محمد هو المتحدث الرسمي الذي يلخص هدفنا ويشرحه ببساطة لأي مسؤول يقابله:
نحن صحفيان مسلمان نريد أن ندخل إلى أفغانستان، من أجل نقل الصورة على حقيقتها، نريد توضيح كذب وافتراء وسائل الإعلام الغربية التي تتهم حركة *طالبان* بالتخلف وتهاجمهم على طول الخط، ونريد أيضًا إقناع الشعوب العربية والحكومات بالاعتراف بحركة *طالبان*. أما أنا فدوري هو التابع المطيع الأمين الذي لا يخرج صوته ولا يتفوه بكلمة، إلا إذا طلب منه.
حملنا أثقالنا وأفكارنا وفي لمح البصر كنا أمام السفارة الأفغانية، محمد يتقدم وأسير وراءه بخطوات بعيدة وجهي في الأرض ولا نسمع حتى أنفاسي.
لم يعترض أحد طريقنا، ولم يسألنا إلى أين نحن ذاهبان؟
ممر طويل هادئ منعطف يمينًا، لتظهر بعض الشبابيك ذات القضبان الحديدية، تطل من ورائها ذقون سوداء وعمامات، ظهر رجال حركة *طالبان*، وقعت عيناي عليهم أخيرًا، استطعت أن ألمح في عيونهم بعض النظرات الخبيثة.
بعض الملصقات على جدران السفارة تحمل صورًا لدبابات ومدافع، يعلوها

اسم «حركة طالبان» وقد كُتبت بالبنط العريض باللغة الأوردية التي تشبه كثيرًا العربية. وقفنا مثل الواقفين، لفت نظري مجموعة من السيدات يجلسن في ركن منزوٍ بعيد بعضهن يخفي وجه، والمفاجأة أن كثيرات كن يلبس مثلي ووجوهن ظاهرة. أحسست بنوع من الاطمئنان وعلى الفور كنت معهن أشاركهن الانزواء انتظارًا للمجهول.
حركة غريبة في السفارة ناس تروح وأخرى تجيء، ورجل غليظ الوجه واللحية يشير إلى ركن النساء بإصبعه. ينتفض الجميع، أسير وراءهن إلى غرفة مغلقة يبدو أنها خُصصت للنساء.
انقطعت الاتصالات بيني وبين محمد. ساعة متواصلة لا أدري عنه شيئًا.
الأفغانيات فاتنات الجمال. هذا هو أول انطباع تسرب إليّ ما إن أزاحت كل واحدة الغطاء عن وجهها. حاولت الحديث معهن ولكنهن لا يتكلمن سوى *البشتو* ولا يعرفن حرفًا إنجليزيًّا واحدًا، ما عدا فتاة صغيرة عمرها ١٨ عامًا تتكلم الإنجليزية قليلًا.
هي سلمى، أول لسان أفغاني يتكلم معي. لم أستطع فهم سر وجودها في السفارة الأفغانية، ولكنها جاءت إلى باكستان منذ ٣ سنوات، بعد أن ترك أهلها المزارعون أرضهم وفروا من الدم المنساب.
سلمى سعيدة بأنها ليست في وطنها، وقالت لي بصوت سمعته بصعوبة
I hate AFGan
أي أكره افغانستان!
- لماذا؟ هكذا سألتها، فأجابت:
- يريدون وضعنا في القبور. وأنا أفكر جديًّا في السفر إلى أمستردام للحاق بأختي التي تدرس هناك.
سألتها إحداهن عني، وعما يدور بيننا فترجمت لي أنهن مشفقات عليّ من الدخول إلى أفغانستان ويدعين لي بالعودة سالمة إلى وطني.
لحظات وكنا نغادر السفارة، بعد أن دق باب غرفة النساء لينادي على اسمي أحد رجال *طالبان*، أخرج مسرعة فإذا بزميلي يشير لي بأن أتبعه إلى الخارج. لم أطق صبرًا، الفضول يقتلني ماذا حدث هل وافقوا أم أنه يصحبني للفندق ومنه إلى متن الطائرة المتجهة للقاهرة؟ لا نملك سوى أن نجر ذيول الخيبة وراءنا.
لم يتكلم «محمد» إلا بعد وصولنا إلى الفندق: *وقفت في طابور طويل عريض ويبدو أن مظهري المختلف أنقذني من حالة انتظار طويلة، إذ وجدت شخصًا يقترب مني وسألني عن جنسيتي فأجبته: مسلم وصحفي. تركني الرجل ثم عاد إليّ مسرعًا وأمرني بالدخول إلى غرفة ظللت فيها وحيدًا ربع ساعة، ودخل شخص يدعى *عبد الظاهر*، شرحت له أننا نريد زيارة أفغانستان لنرى الصورة على حقيقتها، وتكلمت معه كثيرًا بهذا الصدد وأننا نريد الحصول على تأشيرة الدخول، ظل الرجل ينظر إليّ ويستمع ثم أجاب

اكتبوا طلبًا وسوف نقوم بإرساله إلى وزارة الخارجية في «كابول» وننتظر الرد.
سألته:
- ومتي يجيء الرد؟
فأجابني بثقة:
- «بعد 10 أو 20 يومًا*.
لم أستطع أن أمنع نفسي من الانهيار..
يا مصيبتي ننتظر 20 يومًا في هذه الحالة، وفي النهاية يوافقون أو لا؟
وأراح قلبي محمد عندما قال لي إن أحد المنتظرين في السفارة، ويعمل طبيبًا للأطفال قد اقترب منه وعرف حكايتنا وهدفنا وقرر أن يساعدنا، بل سيأتي إلينا في الفندق بعد ساعة.
ترى من هذا الرجل وكيف يساعدنا وما المقابل الذي يريده منا؟ وهل هو ذاك المجهول الذي نبحث عنه فيقوم بتهريبنا عبر الحدود؟
لا شيء نملكه سوى الانتظار.

٤

موسوي نجيب الله

لا أعرف كيف مضت الساعة علينا كأنها سنوات، قطع علينا انتظارنا صوت التليفون معلنًا وصول الرجل المنتظر.

بدأ الدكتور (معذرة، لن أذكر اسمه) حديثه بمجموعة من الأسئلة التي أثارت بعض الريبة في نفوسنا.

ماذا تريدان؟ وهل أنتما تابعان لجريدة حكومية أم مستقلة؟ وهل تودان مقابلة أسامة بن لادن ورؤية معسكرات التدريب؟

قال الرجل: أنا من مدينة «جلال آباد» أول مدينة في أفغانستان وكلها مليئة بالعرب، خاصة الإرهابيين الفارين من أنحاء العالم، ويوجد فيها مصريون كثيرون هاربون من حكومتكم. هل تريدون مقابلتهم؟

انهال الرجل علينا بالأسئلة فأصابنا بحالة ذعر وقلق.

كانت إجابتنا محددة وحريصة جدًّا، ولم تختلف عما اتفقنا عليه ونظمناه لنقوله لكل من يقابلنا. ويبدو أن الدكتور قد شعر ببعض ما يجول في خاطرنا، فغير مجرى الحديث تمامًا وبدأ يتكلم عما يمكن تقديمه لنا، واتهم المسؤولين في سفارة دولته بإسلام آباد بالروتينية والتعنت في كثير من الأمور. واقترح أن نسافر معه في الصباح الباكر إلى مدينة «بيشاور» آخر مدينة في باكستان لنجري مقابلة مع القنصل الأفغاني بالقنصلية الأفغانية في بيشاور، «الموسوي نجيب الله»، وهو رجل متفتح إلى حد كبير وسيوفر علينا كثيرًا من الوقت، كما قال.

بنظرة واحدة متبادلة بيني وبين محمد، أخذنا قرارًا بالموافقة والسفر في الصباح الباكر لمدينة «بيشاور» لنطرق أبواب القنصلية الأفغانية.

ترى ماذا يخفي لنا هذا الصباح؟ ثلاث ساعات من «إسلام آباد» إلى *بيشاور* قطعناها ونحن في حالة يرثى لها من الترقب والانتظار، قلوبنا تكاد تتوقف، المصير متوقف على ختم جواز سفرنا ختمًا يحقق لنا أحلامنا الصغيرة. لم نسترح ولم نلتقط أنفاسنا من المشوار.

لحظات وكنا أمام مبنى القنصلية، دخل الدكتور وسرعان ما أتى لنا برجل بشوش الوجه إلى حد كبير، شاب لم يتجاوز الثلاثين من عمره استقبلنا بترحاب وهدوء، واصطحبنا إلى استراحة خاصة وسرعان ما كانت أكواب العصير أمامنا، لم تمر عشر دقائق وإلا وفتحت ستارة كبيرة وكان أمامنا رجل عجوز ذو لحية طويلة بيضاء.

السلام عليكم.. هكذا تحدث واعتدل في جلسته.

بدأ محمد في الكلام باللغة الإنجليزية فقاطعه الرجل بهدوء: اسمي «موسوي نجيب الله»، وأتحدث اللغة العربية بإجادة، لقد تخرجت في المدينة المنورة.

بدأ محمد يتكلم عن طبيعة مهمتنا وهدفنا وواجبنا كمسلمين، كلام مكرر

حفظه عن ظهر قلب، استمع الرجل جيدًا وصمت الجميع في انتظار الرد. بدأ حديثه باستعاذة من الشيطان الرجيم، و*بسم الله الرحمن الرحيم أهلًا ومرحبًا بكما، نحن نشكركما لأنكما قطعتما هذا المشوار الطويل من أجلنا ومن أجل رؤية الأمور على حقيقتها، ولكن أنتما تعرفان أن لكل بلد قانونها وتأشيرتكما الخاصة بالصحفيين لا تمنح من عندنا، ولكنها من سفارتنا بمدينة إسلام آباد*.
قاطعه محمد:
- لقد ذهبنا بالفعل وطلبوا منا أن ننتظر 15 يومًا ونحن ليس لدينا وقت ومال يكفيان.
- سوف أساعدكما وأقوم بالاتصال بسفارتنا ووزارة الخارجية في مدينة كابول، وبعد غد تأتيان إلى القنصلية لعل الموافقة تكون قد يُسرت.
وقبل أن ينهي «موسوي نجيب الله» حديثه ويتركنا قال مرة ثانية: نقدر لكما مجهودكما، وكما تعلمان أن الناس لم تكن تعارضنا أثناء مكافحتنا للاحتلال السوفيتي الكافر، والآن وبعد أن جاء الإسلام وأصبح الحاكم، نفاجأ بهجوم من الكفار، لذلك سوف نساعدكما من أجل هدفكما النبيل.
ختم الرجل حديثه واختفى.
تركنا القنصلية ونحن نضرب أخماسًا في أسداس، وحالة من التوتر والقلق تسيطر علينا، حتى إننا وضعنا الدكتور في نفس الحالة فأصبح يعيش توترًا وقلقًا من أجلنا، ووعدنا بأنه سوف ينتظر الرد معنا، وفي حالة الموافقة على سفرنا ومنحنا التأشيرة سوف يصحبنا بنفسه إلى أفغانستان، وتحديدًا إلى مدينة «جلال آباد» أول مدينة أفغانية وأيضًا موطنه الأصلي.
يا إلهي ماذا سيحدث؟
بعد يومين تجرعنا فيهما طعم الذل ومرارة الانتظار، ذهبنا إلى القنصلية في موعدنا المحدد.
سألت الدكتور: نفترض أنهم لم يوافقوا على منحنا التأشيرة أليس من سبيل آخر للدخول؟
دون تردد أجابني:
- بالنسبة إليك لا توجد مشكلة، ترتدين الزي الأفغاني الشادوري، وأقول إنك زوجتي أو أختي، ولكن المشكلة بالنسبة للأخ محمد فلحيته ليست طويلة بما يكفي، وإذا دخل على أنه أفغاني، سوف تقبض عليه جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مدة لا تقل عن ٧ أشهر.
إذن علينا ألا نسبق الأحداث، لننتظر القنصلية إما حكمًا بالإعدام صلبًا أو شنقًا أو حكمًا بالبراءة.
ساعة لا أعرف كيف مضت.. جاءني زميلي ومنذ أول لحظة رأيت وجهه فيها كدت أن أطير فرحًا، دون أن يتكلم عرفت أنهم منحونا ماء المحاياة. لقد منحتنا حركة *طالبان* بأمر من وزارة الخارجية في مدينة كابول العاصمة

الأفغانية تأشيرة الدخول إلى إمارة أفغانستان الإسلامية، ولأن الله أراد أن يكمل سعادتنا فكانت المفاجاة أو المفاجأتان: الأولى أن القنصل سمح للزميل المصور أن يصطحب كاميراته معه لممارسة مهمته الصحفية، بشرط ألا يعصي الأوامر وألا يقوم بتصوير كل ما هو ممنوع التقاط صور له، والثانية أنني لن أرتدي *الشادوري* وهو الزي الأفغاني لأنهم يعتبروننني أجنبية، فقط الزي الباكستاني: البنطلون الواسع، والبلوزة الفضفاضة والطرحة التي لا تظهر خصلة من الشعر.
وقبل أن يودعنا القنصل طلب منا أن نتوجه مباشرة إلى مدينة «كابول» عبر الحدود، ولا ننزل أي فندق قبل التوجه إلى وزارة الخارجية هناك، فهم سيدبرون لنا اللقاءات والحوارات وبرامج العمل وحتى مكان الإقامة.
ما إن خرجنا من القنصلية وركبنا التاكسي، وجدتني أروح في حالة من البكاء لا أعرف لماذا؟ سعادة أم خوف من المسؤولية أم ماذا؟
لا أعرف. قد يكون لأني ولأول مرة أشعر أنني أحقق المستحيل.

٥

البداية.. أفيون وأسلحة

الطريق إليها وعر مفخخ، والحديث عنها شائك وطويل.
حائرة وأظن أنها الحيرة التي تنتاب كل من يقف وسط أهوال لا يملك سوى قلم وبعض وريقات.
الأحداث كثيرة، مفاجئة، متلاحقة. كيف أبدأ؟ ومن أين؟
سؤال راودني كثيرًا فوجدت إجابته عند مدينة جلال آباد، ملتقى العرب أو ملاذ الإرهابيين المصريين الفارين خلف أسوارها. ترى هل أنجح في لقائهم؟
المسافة من مدينة بيشاور إلى *طورخم*، آخر ولاية باكستانية نحو ٧٠ كيلومترًا قطعناها، بلا مبالغة، في ساعتين ونصف الساعة، فالطريق ضيق بشكل مزعج والجبال تحيطك من كل ناحية وحوادث سيارات النقل التي تراها بعينك تقشعر لها الأبدان.
في الطريق وقبل الدخول إلى المناطق الجبلية الوعرة، كان لا بد لنا من المرور على قسم الشرطة، توقعنا أن يكون إجراء روتينيًّا، لتكون المفاجأة ذلك العسكري المدجج بالسلاح والبنادق الذي ركب معنا في السيارة دون أي استئذان.
سألنا الطبيب المجهول الذي أرسله الله لنا والذي وفى بوعده ليصحبنا إلى مدينة جلال آباد، عن السر وراء تواجد هذا الشاب المحمل بالذخيرة معنا؟
أجابنا بصوت ليس مسموعًا:
- الطريق إلى طورخم محفوف بالمخاطر خاصة أننا سنعبر منطقة القبائل.
صمت الدكتور وكأنه لم يقل شيئًا.
سألته بفضول شديد: وماذا تعني منطقة القبائل؟
- إنها المنطقة الحدودية الأشد خطورة في رحلتكم بأكملها، وهي ليست تحت حكم أو سيطرة دولة باكستان أو أفغانستان، أبناء هذه المنطقة يتاجرون في المخدرات والحشيش والأفيون ولديهم كل ما يخطر ببالك من أسلحة قديمة وجديدة.
- وما نوعية الخطر الذي يمكن أن يواجهنا ونحن نسير بالسيارة؟
- نحن على حسب مزاجهم، لو أرادوا أن يهجموا علينا ويخطفونا لفعلوها، ثم لا تنسي أنك معنا، وهم من عشاق الجنس الناعم.
لا أعرف لماذا انتابتني حالة من الضحك، حاولت أن أخفيها وللحق لم أستطع، خاصة بعد أن نظرت للعسكري الغلبان الذي يبدو أن الدنيا قد طحنته، هذا هو الرجل الذي سيحمينا إذا هجمت علينا قوافل القبائل الذين يتاجرون في كل نوعيات الأسلحة والمخدرات! صحيح هم يبكي، وهم يضحك.
دون أن نتعرض لمشاكل وبفضل الله اجتازت سيارتنا منطقة الخطر لنصل إلى مدينة طورخم.

زحام وضجيج وبعض المحلات الفقيرة التي تبيع علب المياه الغازية وزجاجات المياه، وبوابة كبيرة حديدية لها بابان، الأول هو الذي نقف فيه والذي يخص مدينة «طورخم» الباكستانية. أما البوابة الثانية فهي المقابلة لنا تلك التي تخص «طورخم» الأفغانية، ويقف عليها عشرات وعشرات من الوجوه التي محت ملامحها أعراض الجوع والفقر المدقع، يريدون فقط الدخول إلى باكستان وقد يظلون هكذا أيامًا ما بين باكستان وأفغانستان، وفي النهاية وعلى رأي المثل: *لا بيطولوا بلح الشام ولا حتى عنب اليمن*.
بسرعة البرق ختم الدكتور جوازات سفرنا من الجزء الخاص بدولة باكستان. لنحصل على ختم الخروج من باكستان، خطوات معدودة لنجد أنفسنا في إمارة أفغانستان الإسلامية.
هل يصدق أحد أننا من أجل «فركة كعب» كما يقولون، دفعنا ضريبة حرق الدم والأعصاب وارتفاع الضغط؟ من أجل هذه الخطوة قطعنا مسافات ومشاوير طويلة.
وقفت لحظات أحدث نفسي وأسألها: هل حقًّا قدماي الآن في أفغانستان، ذلك الحلم الذي راودني منذ سنوات؟
أفقت على صوت الدكتور مرافقنا يناديا لكي نأخذ ختم الدخول إلى الأراضي الأفغانية، غرفة مظلمة إلى حد كبير يتوسطها رجل في الأربعين من عمره *مولاي محمد حنفي* الذي تبادل الحديث مع الدكتور باللغة البشتو، ثم أشار إلينا بالدخول.
يبدو أن الرجل تذكر أن العِمة لا توجد على رأسه، فانشغل قليلًا بربطها وضبطها وبدأ يتحدث مع الدكتور الذي ترجم لنا الكلام باللغة الإنجليزية: *أنتم أول صحفيين مسلمين يدخلون إلى وطننا، نرجو أن تقولوا الحقيقة التي يشوهها الأجانب الكفار، سوف تدخلون كابول وتتحركون فيها بسهولة وتقومون بالتصوير كما تريدون، وأنت امراة وأنا من حركة طالبان ترين أنني أجلس معك وأنت لا ترتدين الشادوري، ليس صحيحًا أننا نحبس الفتيات ونمنع خروجهن في الشوارع، بالعكس المرأة الأفغانية لها مطلق الحرية في الحركة ولكن بالزي الإسلامي الذي شرعه سبحانه وتعالى*.
تكلم الرجل كثيرًا، وللحق لم تكن درجة تركيزي معه إلا بنسبة ٥٠٪ أما النصف الآخر فانشغل بتفقد الحجرة التي يجلس بها والتي تناثرت بها الأسلحة في كل مكان، *كلاشنكوف* و*آر بي جي*، وجهاز لاسلكي، ومسدس في جيبه وبعض المطاوي. للحق لم أخف، بل شعرت بسعادة خفية تتسرب إليّ مثل الأطفال تمامًا لأني ببساطة ولأول مرة أرى فيها هذا الجو الملبد بالبنادق والأسلحة.
أفقت على صوت زميلي قائلًا: السلام عليكم، فعرفت أننا قد مُنحنا ختم دخول الإمارة الأفغانية الإسلامية.

٦

مخدرات أمير المؤمنين

المسافة من مدينة «طورخم» الأفغانية إلى مدينة *جلال آباد* قطعها التاكسي في ساعة ونصف الساعة.

فاجأتني طبيعة أفغانستان الخلابة. من يراها لأول وهلة لا يصدق أن هذا البلد تحول إلى صنبور مفتوح من الدماء، احتلال سوفيتي، ثم حرب أهلية ضروس ما زالت دائرة حتى هذه اللحظة.

الطريق لم يخل من دبابات قديمة من مخلفات الجيش الروسي، وآثار واضحة لمبانٍ مدمرة، أو مطب طبيعي من جراء قنبلة متفجرة.

كان الدكتور منهمكًا في قراءة «جريدة» لم أفهم منها شيئًا وقد كتبت بلغة *البشتو*. تبادل الحديث مع سائق التاكسي وسمعت كلمة *الملا عمر* فسألت هل هناك خبر منشور عن أمير المؤمنين؟

ضحك الدكتور ضحكة ساخرة وترجم لي ما كتب بأسلوب ساخر *الملا عمر سمح للنساء الأجنبيات بقيادة السيارات في كابول*.

- ولماذا تتحدث بلهجة الساخر؟

- لأنه ببساطة سمح بذلك من أجل السيدات العاملات في منظمات الأمم المتحدة والصليب الأحمر، سمح بذلك وهو يعرف دور هذه المنظمات المشبوه.

حاولت أن أفهم منه ولكنه بصوت هادئ قال: - عندما أحضر لكما الفندق مساء سنتحدث طويلًا فقد تكون تلك المرة الأخيرة التي أراكما فيها.

ساد الصمت فترة طويلة، فقطعه الدكتور عندما أشار يمينًا لأحد المصانع البعيدة قائلًا: هذا المصنع أقيم خصيصًا من أجل تصنيع الأفيون.

-وهل ما زال يعمل؟

- بالطبع يعمل يوميًّا.

- ولكننا سمعنا أن *الملا عمر* قد أصدر فتوى بتحريم زراعة المخدرات.

فتواه ليست على كل الناس. الفقراء من الشعب الأفغاني فقط، ولكن هنالك رجال أعمال يملكون آلافًا من الهكتارات الخاصة بزراعة الأفيون، وقد أخفوا كميات مهولة من هذه الزراعات وما زالوا يحتفظون بها ويقومون بتصنيعها وتهريبها، وإلا فكيف أصبحوا أثرياء ورجال أعمال؟

- تقصد أن الملا عمر يعرف هذه المصانع؟

- أمير المؤمنين يعرف كل صغيرة وكبيرة عن موضوع المخدرات، ويحرم زراعتها وتداولها على أشخاص بسطاء ليس لديهم المال الكافي لتناولها، ولكنه لا يراها حرامًا على الناس الأغنياء، ثم إن هناك قبائل أفغانية تهدد الملا عمر بالتمرد والانقلاب عليه إذا لم يوافق ويصدر فتوى عدم تحريم الإتجار في المخدرات.

وصلنا إلى الفندق في مدينة جلال آباد، فندق في منتهى الفخامة ولكنه بلا مبالغة مهجور، لا صوت فيه غيرنا، يبدو أنه كان كما يقولون ابن عز وجار عليه الزمن، الليلة فيه بـ ٢٠ دولارًا وهو مبلغ ضخم بل ويعد ثروة في أفغانستان. قررنا أن نبيت ليلتنا وننتظر الدكتور مساء لنعرف ماذا يريد الرجل؟ ولماذا يفعل معنا كل هذا؟

٧

***الجاسوس* الأفغاني**

رغم أن الدكتور جلس معنا فترات كثيرة، إلا أن التوتر والقلق النفسي والعصبي اللذين انتاباني جعلاني لا أسأله عن ظروفه وحياته الشخصية، ولكن لم يفتني الإحساس بأن هذا الرجل بداخله شيء ناقم على ما يحدث في أفغانستان، لذلك ما إن جاء إلينا في الفندق إلا وبادرته بالسؤال: - لا أعرف شيئًا عنك رغم أنك شبه مقيم معنا منذ ثلاثة أيام؟

- وماذا تريدين أن تعرفي عني بالضبط؟

- لقبك الدكتور. ولكن أشعر بأنك لا تزاول مهنتك فهل إحساسي صحيح؟

انخفض صوته تمامًا ليسيطر عليه الانكسار: شهادتي في طب الأطفال من جامعة بالهند.

صمت الرجل وكان من السهل أن ألحظ دموعه، فسادت حالة من السكون في أرجاء الغرفة.. ثم عاود الحديث قائلًا: - عندما جاء رجال *طالبان* وأخذوا الحكم، أغلقوا المستشفيات فلم يعد لي مكان في المهنة، تركت الطب وعملت مع أخي الأصغر في محل صغير بمدينة جلال آباد، وأذهب أسبوعيًّا إلى باكستان لجلب بعض البضائع عبر الحدود، ولي زوجة واحدة وأتمنى الزواج من أخرى ليست أفغانية، أريد الخروج من هذا البلد والحل أن أتزوج من أجنبية وأستطيع أن آخذ جنسية بلدها لأغادر هذا المكان.

- هل أعتبر تلك الرغبة تعبيرًا عن كراهيتك لوطنك؟

- أي وطن هذا؟ أين الوطن؟ غوغاء ليس لديهم عقول هم الذين يتحكمون في حياتنا. لقد أصبحت الدنيا ظلامًا في ظلام، عقب خروج الاحتلال السوفيتي ظننا أننا سنلتقط أنفاسنا، وفجأة دخلنا في حروب مجنونة ليس لها نهاية، وأخيرًا يحكمنا رجال *طالبان* الذين لا يطبقون سوى ما يتماشى مع مصالحهم فقط، أي دين هذا الذي يمنع أولادي من التعليم لأنهم فتيات؟ أي دين هذا الذي يمنع التلفزيون؟! أنا رجل غني لا أعيش في فقر مثل ٩٠% من الشعب الأفغاني، وكان لديّ ٤ تلفزيونات في بيتي قبل قطع الإرسال وكنت أخشي أن أفتح جهازًا واحدًا، خوفًا من جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذين يملكون دوريات ليلية تمر على البيوت وتقتحمها دون رحمة وتضرب وتسجن كل من يدير التلفزيون، وزوجتي والباقيات مغلوبات على أمرهن، فليس مسموحًا لها سوى بالخروج في صحبتي، ومحبوسة في *الشادوري* الذي فرضته علينا *طالبان* فرضًا.

- وماذا عن وسائل الترفيه؟

ضحك الدكتور ضحكة من القلب قائلًا:

- نرفه عن أنفسنا بإنجاب الأطفال!

- أريد أن أسألك بصراحة لماذا قدمت لنا يد المساعدة؟
- لأمرين: الأول، أريد مغادرة هذا البلد وكنت أود أن تساعدوني في عمل دعوة خاصة لي وزيارة مصر، أو تبحثوا لي عن امرأة أتزوجها، والأمر الثاني أنني من مصلحتي كرجل أفغاني ما زال لديه بعض من خوف على وطنه، أن أجلس مع صحفيين عرب مسلمين لأقول لهم ماذا تفعل *طالبان* مع الشعب الأفغاني، ولقد قصدت تمامًا أن أساعدكم حتى تنقلوا صوتي، الأهم من ذلك كله أنني على استعداد بأن أعمل معكم، وأمدكم بالمعلومات الخاصة والدقيقة من داخل أفغانستان وحتى الصور.
- المعنى الذي تقوله لا معنى له سوى أنك على استعداد أن تعمل جاسوسًا؟
- نعم أتمنى أن أكون جاسوسًا لو أن هذا سوف يخلصنا من ذوي العقول المظلمة.
صمتُّ طويلًا لأستوعب ما قاله الدكتور وغيرت مجرى الحديث قائلة: - قلت لي إن مدينة *جلال آباد* بها العديد من الإرهابيين المصريين الفارين من حكومتنا، فهل يمكن لي مقابلة أحدهم؟
- المسألة خطيرة لأنهم لا يتفاهمون إلا بالسلاح، ثم إنكما من بلدهم مصر وقد يعتقدون أنكما جواسيس من الحكومة المصرية وتريدان تسليمهم، ولكن لدي صديقان يمكن لك أن تقابليهما، فقط أعطني الفرصة لأحدثهما في الأمر.
انتفض الرجل من جلسته وهم بالذهاب فسألته:
- إلى أين؟
- انتظراني سأعود.
بعد ساعة كان الدكتور أمامنا، وبصوت منخفض بالكاد نسمعه: - *أبو اليزيد وعبد الرحمن* هما اللذان اقتنعا بمقابلتكما، ولكن مدة لا تزيد على عشر دقائق، سنتحرك عندما يحل الليل تمامًا وتهدأ الحركة.
في التاسعة مساء كنا في سيارة الدكتور الخاصة، لم نمش كثيرًا بها ولكنا دخلنا في شوارع ضيقة ليست مرصوفة، ترمي *الإبرة تسمع رنتها* كما يقولون. قبل المنزل المقصود بما يقرب من ٥٠ مترًا نزلنا من السيارة، وقبل أن نكون داخل المنزل قال الدكتور: - الحديث لن يكون وجهًا لوجه، ولكن من خلف ستارة. ستجلسان في غرفة وحدكما وسيتم الحوار من خلف الستار وبصوت هادئ، وكلام محسوب وليس كثيرًا والمدة عشر دقائق.
المكان مظلم ويبدو أن الكهرباء كانت مقطوعة، أو أن هذا كان مقصودًا.
ضوء الشمعة كان يكفي لرؤية محتويات الغرفة، بلا مبالغة الغرفة مفروشة بأسلحة *آر بي جي*، رشاشات، بنادق آلية. أحسست أنني في مصنع للذخيرة وليست غرفة عادية.
تبادلت النظرات أنا ومحمد، ولم نستطع من هول المكان أن نتبادل الكلمات، جاءنا صوت خشن لم نستطع تحديد مصدره: - طلبتم مقابلة مصريين يعيشون في هذه المدينة لماذا؟

قلت: الدم بيحن ونحن في النهاية إخوة نريد أن نتعرف على مشكلتكم الحقيقية، لماذا أنتم هاربون من وطنكم الأم؟
- إننا مجاهدون وهم يتهموننا بأنا إرهابيون.
- وما معنى كلمة مجاهدين؟
- الجهاد في سبيل الله بكل الطرق، ونحن لم نفعل شيئًا. كل ما نريده هو تحرير الأرض من الفساد.
- وما المقصود بالفساد؟
- مصر كلها فساد. النساء كافرات متبرجات عاريات، أجهزة التلفزيون اللعينة التي تذيع كل ما هو مخل بالدين من أفلام وأغانٍ تلهي الناس عن دينها.
- من أجل هذا تركت مصر أم أن هناك ما هو أكبر من ذلك؟
- نحن مطاردون من قبل حكومتكم المصرية، يقولون إننا إرهابيون شاركنا في قتل الأجانب الذين يجلبون دخلًا ماديًّا لهم، دخل حرام وفلوس حرام.
- ألاحظ من كلامك أنك لا تعتبر حكومة بلدك الأم هي حكومتك؟
- طبعًا.. حكومتكم كافرة، أنا الآن أعيش تحت حكم حكومة إسلامية مجاهدة ويكفيني فخرًا أنني تدربت في معسكرات الشيخ العظيم أسامة بن لادن.
- هل تراه باستمرار؟
صمت كثيرًا ثم أجابني:
- الوقت انتهى لقد أخذتم أكثر من عشر دقائق، ولكن قبل أن تغادروا فكروا في التوبة والاستقرار معنا في الإمارة، سوف يسألكم الله سبحانه وتعالى يوم القيامة ويعاقبكم على صحتكم وقبولكم العيش في ظل هذا.
لم يكن أمامنا سوى الانسحاب ومغادرة المكان الذي أصابني بالاختناق، أي عقول أتكلم معها؟ جنون هذا أم مثالية زائدة تلك التي تدفعني دفعًا للذهاب لبشر فقدوا إنسانيتهم وآدميتهم وتوحشوا، صحيح أنني لم أره ولا أعرف إذا كان زيد ولا عبيد ولا حتى مين، لكنه في النهاية مات عقلًا وموضوعًا إن لم يكن أيضًا جسدًا وإحساسًا.
لا أملك سوى حزني وهمومي، أطويها بين أربعة جدران في غرفتي في الفندق، لم يعرف النوم لعيني طريقًا. وكيف أهدأ وفي الصباح الباكر أستعد لدخول العاصمة الأفغانية «كابول»؟ كيف نسافر عبر طريق مفروش بالأحجار لمدة ٩ ساعات متواصلة؟ ما شكل مدينة كابول؟ وكيف استقبلنا زعماء حركة طالبان؟ وهل ننجح في الوصول إلى الناس والحديث معهم أم أن هناك عوائق ستحول بيننا وبينهم وهل يستطيع الزميل المصور التقاط صور لما يريده أم أن هناك محظورات؟

٨

إلى كابول.. فوق الجثث والقنابل

يناديني من بعيد.. يخترق جدار الصمت والسكون فيصم صوته الآذان.
لا شيء سواه يشد قدمي إلى عالم الدوامات المستحيلة والدوائر المغلقة، وحده ذلك الحنين الجارف الذي يدفعنى دفعًا إلى المجهول، نجح بجدارة أن يسلبني إرادتي فوجدت نفسي على أرض الموت والدماء وسط تلال من الأنقاض والدمار.
وحده كان معي في رحلتي إلى مدينة الأشباح، آخر الألقاب التي أطلقت على العاصمة الأفغانية كابول.
لا شيء سوى رائحة الموت ومشاهد الأنقاض والدمار وصهد الدماء، الجثث راحت أشلاء مبعثرة في كل مكان، والقبور رائحتها تفوح من بعيد.
هدوؤها دائمًا ما يسبق عاصفة من صوت القنابل والرشاشات والـ*آر بي جي* وأحيانًا الديناميت، طيور الظلام تحلق بأجنحتها في سماء العاصمة فتحجب حتى نسمة الهواء عن الصدور.
القتل والاغتصاب والاختطاف وجبة ترحيب ساخنة تقدمها حركة *طالبان* لزائريها.
تلك هي الصورة التي علقت بأذهاننا منذ اللحظة الأولى التي أقلعت فيها الطائرة من مطار القاهرة، وللحق ظلت عالقة طوال الطريق من مدينة جلال آباد إلى كابول.
الطريق إلى العاصمة الأفغانية يعجز عن وصفه القلم، فما أسهل أن أقول وصلنا إلى المدينة المقصودة في ٩ ساعات، وما أيسر أن أقول إننا وقفنا للراحة وتناول االمشروبات الباردة، والتقاط الأنفاس ثم أكملنا. ولكن الحقيقة ما أصعب وصفها، فلقد كان مشوارًا ساخنًا وصل إلى درجة الغليان، فلك أن تعرف أن المسافة الأصلية من مدينة «جلال آباد إلى كابول» لا تستغرق سوى ساعة ونصف الساعة، قطعناها نحن في ٩ ساعات متواصلة من العذاب والهوان والألم، السيارة بلا مبالغة يسير قائدها على *الثاني* أي بسرعة لا تتعدى ٣٠ كيلومترًا، والسبب بسيط يكمن في أن الطريق ليس مرصوفًا أو ممهدًا، ببساطة كنا نسير على زلط، وتراب جيري أبيض، وأحجار مدمرة كنا نشعر بلا مبالغة أن السيارة تطلع إلى فووووق وتنزل إلى تحت، وعندما نسال السائق الذي لا يعرف سوى بضع كلمات قليلة من اللغة الإنجليزية يقول لنا *بومب* يقصد مكان قنبلة.
لم يكن يثير الرعب في قلوبنا ويجعلنا ننطق الشهادتين لأكثر من مرة سوى الطريق الضيق الذي نسير فيه، عندما رأينا الموت أكثر من ٣ مرات، في الأولى كادت السيارة أن تنقلب بنا إلى قاع الجبل الصخري العتيق، والثانية عندما كادت سيارة نقل متوحشة أن تأخذنا بين أحضانها لتعصرنا عصرًا، أما

الثالثة عندما مالت السيارة على جنبها الأيمن وسارت على عجلتين على أثر مطب طبيعي محترم أفقد السائق توازنه فكاد أن يفقدنا حياتنا.
مررنا على قرى حدودية كثيرة الفقر المدقع كان العامل المشترك بينها جميعًا، وكانت المفاجأة عندما وقعت عيناي على مجموعة لا بأس بها من السيدات اللاتي يمشين في الطريق ووجوهن عارية، أو بالأدق لا يرتدين *الشادوري* وهو الزي الذي فرضته حركة *طالبان* على السيدات الأفغانيات، فقط يرتدين زيًّا عاديًّا يشبه كثيرًا ذلك الذي ترتديه الفلاحات في القرى المصرية. بالمناسبة لم يحاولن أن يخفين جوههن عن نظراتنا المندهشة، بل بالعكس كن يتبادلن معنا النظرات بنفس الدرجة من الدهشة، حاولت أن أتكلم مع السائق فسألته:
- هن أفغانيات؟
أجابني بابتسامة خبيثة: نعم.
أشرت إليه بيدي سائلة: وأين *الشادوري*؟
حاول أن يجيبني تارة بالإشارة وتارة بلغة إنجليزية ضعيفة وكثير من لغة البشتو، ولكنني فهمت أخيرًا أن أيدي حركة *طالبان* وخاصة جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بعيدة إلى حد كبير عن تلك المناطق الحدودية، بل لا يأتون بسياراتهم للتفتيش سوى مرة واحدة في الأسبوع وغالبًا يوم الجمعة، فيما عدا ذلك تتحرك السيدات بحريتهن دون التقيد بالشادوري والأهم أنهن ينزلن إلى الحقول لمساعدة أزواجهن في فلاحة الأرض.
كابول.. قالها السائق فأصابنا في مقتل، نزلت كلمته كالصاعقة فأفقدنا النطق. مفاجأة بكل المقاييس لدرجة أننا لم نصدق أنفسنا.
سألته لعلي لم أسمع جيدًا:
- هل وصلنا كابول؟
رحت في حالة من تأمل ما أراه من نافذة السيارة. ضجيج، صخب، سيارات تروح وتجيء، تاكسيات، أتوبيسات مزدحمة، رجل يركب دراجة وسيدة ترتدي *الشادوري* تجلس وراءه، المدينة مليئة بالسيدات اللاتي يمشين وحدهن أو مع أطفالهن، فقط لا يظهر لهن ملامح من وراء الزي الذي يرتدينه، يتحركن بل ويتزاحمن في الأتوبيسات ويوقفن تاكسيات للركوب، يتعاملن مع البائعين الرجال بل ويتكلمن معهم.
توقف السائق ويبدو أنها إشارة مرور أو أنه نزل من السيارة ليسأل عن مكان وزارة الخارجية، لا أدري ولم أكن في حالة تسمح لي بالتساؤل. فقط التف حول العربة ما يقرب من ١٠ وجوه بلا مبالغة ٦ سيدات و٣ رجال عجائز وطفلان.
لم أفهم ما يقولونه بسبب لغتهم، ولكنني أدركت أنهم شحاذون يطلبون بعض الروبيات من أجل الطعام، استطاع السائق أن يبعدهم عن السيارة وانطلق..
يبدو أنها رحلة المفاجآت، هكِذا تحدثت لنفسي بصوت يبدو أنه كان مسموعًا

لزميلي المصور الذي رد قائلًا: وما خفي كان أعظم.
وزارة خارجية إمارة أفغانستان الإسلامية.. لافتة أعلنت وصولنا إلى أول الخيط.
أحكمت الإيشارب كالعادة، وانطلقت وراء زميلي المصور، كنت المرأة الوحيدة التي تتجول داخل مبنى الخارجية، مما أثار الرهبة بداخلي رغم أن نصفها قد زال تمامًا بعد أن رأيت بعيني السيدات يتجولن في الشوارع دون أي مشكلة.
ولكن لا يخلو الأمر من توتر وقلق.
بسؤال زميلي لأحد المارين في المبنى عن دائرة الإعلام والنشر الخاصة بالصحفيين، كنا في لحظات معدودة داخل الدائرة نفسها وسط رجال حركة طالبان.
كلمة «السلام عليكم» التي ألقاها زميلي المصور على الجالسين، شدت الانتباه وأراحت القلوب قبل الوجوه، وبدأت الابتسامات تظهر من وراء الذقون السوداء ويبدو، والله أعلم، أن هذه الكلمة ستفتح لنا أبوابًا كثيرة أوصدت في وجوه كثيرين من قبلنا.
سألنا أحدهم عن جنسيتنا فكانت الإجابة: *مسلمان مصريان*.
انتفض الجميع، ويبدو أن الدائرة قد انقلبت رأسًا على عقب عندما فُتح باب مغلق وخرج منه من تحدث معنا بلغة عربية فصحى ممتازة، وكان حديثه موجهًا إلى زميلي المصور وأسئلته شديدة التحديد ومختصرة عن سبب زيارتنا وبرنامج العمل، وصورة «طالبان» عند الشعب المصري والمصريين.
وكانت إجابتنا المعهودة *بأن رسالتنا تنحصر في توضيح صورة حركة طالبان للعالم العربي والإسلامي، بدلًا من الصورة المشوهة التي ينقلها لنا الإعلام الغربي وأننا قطعنا مشوارًا طويلًا لنرى بأنفسنا الإمارة الإسلامية الوليدة*.
يبدو أن إجابتنا نالت استحسان المستمعين، لتُفتح أولى الأبواب المغلقة ونعقد مقابلة سريعة مع مولاي *فايز أحمد فايز* المتحدث الرسمي لوزارة الإعلام والخارجية سويًّا.
بدأ الرجل حديثه قائلًا: *نرحب بكما ونستقبلكما في بلادنا أفغانستان، كأول صحفيين مسلمين عربيين يدخلان إلى الإمارة ويفكران في رؤية الأمور على حقيقتها. نحن نسمع عن مصر جدًّا ونفتخر بالمصريين الذين ساعدوا الشعب الأفغاني في محنته القاسية وحربه المريرة مع الاحتلال الروسي الكافر، لذا سوف نقدم لكما يد العون والمساعدة*.
يصمت مولاي فايز قليلًا ثم يعاود حديثه بثقة: *سوف نعين لكما مرافقًا يتكلم اللغة العربية وهي لغتكم الأصلية، وستكون معكما سيارة حكومية تسهل لكما الانتقال من مكان إلى آخر داخل الإمارة الأفغانية، وسنقوم بتوفير مكان الإقامة في أفخم الفنادق لدينا، إلى جانب أننا سنقوم بترتيب المواعيد واللقاءات مع كل الشخصيات المسؤولة التي تريدان مقابلتها*.

أخيرًا خرج صوتي الذي ظل محبوسًا فترة طويلة من الزمن، شكرت الرجل على كل ما قاله، وبشكل مباشر ودون أي مقدمات طلبت منه مقابلة اثنين: الأول هو الشيخ أسامة بن لادن، هكذا يطلقون عليه، والثاني هو أمير المومنين الملا عمر.
ابتسم الرجل الطالباني ابتسامة تعني أنني أطلب المستحيل، وأجابني:
- *لو جئت منذ ٤ أشهر فقط كان يمكنك مقابلة الشيخ أسامة بن لادن، ولكن للأسف لقد حجبنا عنه حق الحديث لأي نوع من أنواع الإعلام سواء صحافة، أو محطات تلفزيونية أجنبية...*.
قاطعته على الفور: *ولكننا عرب ومسلمون وأظن أن الشيخ أسامة لم يسبق له الحديث مع أي صحيفة عربية؟*.
- *نعلم هذا.. ولكنه ليس بيدي. تستطيعين طلب ذلك مباشرة من السيد وكيل أحمد متوكل وزير الخارجية فهو صديق صدوق له، أما الأمر الثاني والذي يخص مقابلة أمير المؤمنين فهو لا يدلي بأي أحاديث صحفية ولا يقابل أي امرأة، حتى لو ارتدت *الشادوري*، هو يفضل العمل فقط وله عبارته الشهيرة *الذي يريد معرفتي ورؤيتي والحديث معي فعليه إذن أن يرى أعمالي ويشعر بها فهذا أصدق إفادة لي وله**.
أعترف شعرت بالإحباط نوعًا ما ولكنني تجاوزت الحالة وطلبت منه لقاء أكبر عدد من المسؤولين، وقبل أن نودعه وعدنا الرجل بالعودة إلى مصر بعمل كلنا نتمناه والأهم كان تصوير كل ما نريد..
وبدأت الجولة الأولى عقب خروجنا من غرفة المتحدث الرسمي لنلتقي بالمراقب، عفوًا *المرافق*، الذي يتحدث اللغة العربية بشكل جيد وسيارة مرسيدس فارهة اصطحبتنا إلى الفندق الفخم *إنتركونتيننتال*. لم يكن لدينا فكرة أننا سندفع نقودًا باهظة الثمن في الفندق، وتصورنا أن هناك تخفيضًا ما سيحدث من قبل وزارة الخارجية، لنفاجأ بأن الغرفة الواحدة في الفندق تقدر بـ ١٥٠ دولارًا وهو مبلغ وقتها كان كبيرًا بالنسبة لنا.
قلت للمرافق: *نحن نريد فندقًا معقول الثمن لأننا ببساطة لا نعرف الظروف*، فأجاب إجابة حاسمة قاطعة: *غير مسموح لكما سوى بالنزول في هذا الفندق فهو مخصوص للصحفيين الأجانب*.
إذن.. لقد بدأنا الدخول في منطقة المسموح وغير المسموح.
ربنا يستر!
لم نلتقط الأنفاس، فقط اكتفينا بوضع الحقائب وانطلقنا لننجز بعضًا من عملنا الذي قررنا أن نبدأه بجولة سريعة مصورة في شوارع مدينة كابول.

جميلة هي الأحلام وصعبة المنال، فما إن بدأ الزميل المصور يستعد لالتقاط بعض الكادرات الخاصة بالحياة والناس والمواصلات، حتى ارتفع صوت مرافقنا مولاي محمد حنفي محذرًا: *هذا ممنوع. نحن لا نحب تصوير الشوارع

والبشر. مسموح فقط أن تقوما بتصوير الأماكن المهدمة والمدمرة من جراء حرب «أحمد شاه مسعود»، نريدكم أن تنقلوا للعالم العربي والإسلامي ماذا تفعل يداه في العاصمة الأفغانية*.
لم أطق صبرًا ولم أستطع الصمت قلت: *يا مولاي محمد هذا عملنا ونحن الذين نحدد ما الذي ننقله، وما الذي نريد أن نقوله وليس أنتم، ثم إننا تكلمنا مع المتحدث الرسمي ووعدنا بأنكم ستساعدوننا..*.
رد الرجل بسرعة شديدة:
- *تلك هي مشكلتكم مع وزارة الخارجية*.
كان الوقت قد فات للذهاب إلى وزارة الخارجية، فالجميع يذهب إلى الغداء والراحة وليس أمامنا سوى الغد لعلنا نجد حلًا.
بنظرة متبادلة بيني وبين الزميل المصور، قررنا أن نفعل ما يريدونه منا أولًا وفي قرارة أنفسنا نفعل ما نريد.
وقد كان، ذهبنا بالفعل إلى الأماكن التي دمرت من جراء الرصاص والقنابل التي كان يلقيها رجال أحمد شاه مسعود، العدو اللدود الذي يقف صامدًا أمام رجال حركة *طالبان*.
ولكن إذا كان هذا هو كل العمل الذي سيسمحون به، فلنقل على مجهودنا وحرق دمنا وأعصابنا وتعب عظامنا *يا رحمن يا رحيم*. الحق لم نشعر كثيرًا بالإحباط والحزن ولم نخف كثيرًا على أداء مهمتنا، خاصة أن لدينا ما يسمى بكاميرا الإخفاء، تلك الصغيرة التي لا تكاد ترى ولا يسمع أحد لها صوتًا فكانت المنقذ لرحلتنا، ولها الفضل في إنجاز مهمتنا الخاصة بالتصوير.
ليس أمرًا صعبًا أن تشعر بأنك مراقب.
من السهل أن تدخل غرفتك وتعرف أن قدمًا ما قد دخلتها عقب مغادرتك لها، وأن يدًا ما قد عبثت فيما بين أوراقك وبعض ملابسك، ومن السهل أيضًا أن ترى عينًا سحرية وقد عُلقت على باب غرفتك ليس لترقب من يدق بابك ولكن ليراك من بالخارج.
وليس أمرًا شديد الصعوبة أن تلحظ عيناك شيئًا ما صغيرًا معلقًا في الأباجورة التي وضعت بجانب سريرك أو في نجفة سقف الغرفة، وأمر صعب للغاية أن تتخيل أن هناك من يراك في أدق تصرفاتك الحياتية، وشيء بالغ القسوة أن تنام بصعوبة شديدة وتحلم فتشعر أن أحلامك مراقبة.
ببساطة وبصراحة هذا ما تعرضنا له كل في غرفته، أتكلم عن نفسي وأفصح أنني لم أغير ملابسي التي أخرج بها طيلة تواجدي على أرض كابول، أنام وأقوم بالزي الباكستاني الذي أرتديه، شيء مزعج جدًّا أن أشعر أنني لست وحدي في غرفتي الخاصة.
والسؤال لماذا؟ والإجابة بالطبع ليست عندي؛ لأننا لم تكن لدينا الجرأة أن نسأل خوفًا، لأننا بالعامية وبالبلدي *لو جرى لنا حاجة ماحدش هيعرفلنا طريق جرة*.

طويلة ومملة ومترقبة.. هكذا كانت ليلتي الأولى في كابول، ساعتها الثقيلة كانت كفيلة بأن تجعلني أستسلم لتاريخ وحكايات هذا البلد العجيب الذي مر بحروب عاتية، وانسالت دماء أبنائه أنهارًا. تأملت كثيرًا أحداث هذا البلد وحدثت نفسي كثيرًا، صحيح أنني لست خبيرة بالشؤون الأفغانية، ولم أحلم يومًا ما بأن أصدر كتابًا عن أفغانستان لأضع بجانب اسمي لقب محللة شؤون أفغانية، خاصة أن المجتمع الأفغاني شديد التعقيد بل ويصيب متأمله لا محالة بنوع من الارتباك واللخبطة، وأيام أو حتى شهور ليست بالتأكيد كافية على الإطلاق لدراسة وتحليل أفغانستان.
ولست مبالغة عندما أقول إن عشر سنوات أيضًا لن تكفي للقيام بهذا الدور، ثم إن رحلتي لم يكن الهدف منها الدراسة والتحليل، بقدر المشاهدة والرصد والإجابة عن كثير من علامات الاستفهام الخاصة بحركة طالبان، ولأننا تحت أيديهم وتحت سلطانهم منذ لحظة دخولنا إلى الحدود الأفغانية فأصبحنا مثلنا مثل الشعب الأفغاني تمامًا، فهم لن يقبلوا أسئلتي إلا في حدود وحتى إذا قبلوها فلن يجيبوا عنها أيضًا إلا في حدود، أو من خلال وجهة نظرهم الخاصة جدًّا لذلك كان عليّ التصرف ولكن بحرص شديد.
شاب أفغاني شديد الحكمة والرقي والثقافة، درس اللغة العربية في جامعة الأزهر ويتحدث بطلاقة، التقيته عندما فارق النوم عيني، فقررت النزول إلى ردهة الفندق الذي بات خاويًا من الأعين التي تترقبنا، اقترب مني وبدأ يتحدث بحب وانطلاق عن أيامه في المحروسة، لم يعطني معلومات شخصية عنه وفضل ألا يذكر اسمه، والحقيقة أنني لم أرَه مرة أخرى في الفندق، وكأنه تبخر تمامًا من الأجواء، تحدث الشاب الأفغاني عن كثير من النقاط التي ربما أضاءت لي الكثير، خاصة عندما سألته عن حكاية حركة *طالبان* ومدى تقبل الشعب الأفغاني لحكم رجالها؟
أجابني بهدوء شديد: *ليس صحيًّا أن نتكلم عن حركة *طالبان* دون فهم لما جرى من أمور عقب غزو القوات السوفيتية لأفغانستان، والحقيقة أن هذا يحتاج إلى كتب ومجلدات ووقت كثير لفهم ما جرى، الحكاية بدأت في عام ١٩٨٠عندما بدأت جماعات قبلية مسلحة في شن ما سمي بالجهاد ضد الحكومة التي نصبها السوفيت في أفغانستان، واستطاعت أن تستولي على قطاعات من الأراضي، ومثلت الأحزاب الرئيسة في تحالف من ٧ جماعات سنية تتخذ من باكستان مقرًّا لها، وأشهرها الجمعية الإسلامية التي كان يتزعمها برهان الدين رباني والحزب الإسلامي الذي كان يرأسه *حكمتيار*.
واستمرت الحروب ما بين جماعات المجاهدين والقوات الحكومية ٩ سنوات منذ عام ١٩٨٠ وحتي ١٩٨٩، وفي هذا الوقت كان الرئيس محمد نجيب الله يتولى مهام منصبه كرئيس لأفغانستان، وكان الرجل مواليًا للاتحاد السوفيتي.
وبعد انسحاب القوات السوفيتية تزايدت حدة الصراع المسلح بين القوات الحكومية والمعارضة، واستمر الصراع والحروب الأهلية حتى مطلع عام

١٩٩٥، ليمتد القتال إلى جميع المدن الكبرى وهنا يظهر على الساحة أحمد شاه مسعود، وعبد الرشيد دوستم، ليظهر الطلاب الدينيون الذين قادوا قوة عسكرية كبرى فرضت سيطرتها على معظم الأقاليم، ونجحت في أن تجعل قوات مسعود تتزحزح إلى الشمال، تلك هي قصة بداية *طالبان* التي نجحت في السيطرة على أفغانستان والسؤال هنا: هل قوة منهم أم احتياج ديني من قبل الشعب؟* .
يجيب الشاب الأفغاني بوجهة نظر يتبناها كثير من الأفغان؛ ألا وهي أن الحركة قد تقلدت الحكم بمحض الصدفة وليس بقرار، والحكاية بدأت عندما كانت هنالك مجموعتان من مجموعات أحمد شاه مسعود تتسامران ليلًا، وحدث نزاع كبير بين قائدي المجموعتين، ونشب خلاف أدى إلى قتال راح ضحيته ما يقرب من ٢٠٠ أفغاني. وعقد القائد المنتصر حفلًا كبيرًا أنفق فيه آلاف الدولارات، فاستاء البسطاء من الشعب الأفغاني واستنجدوا بأهل العلم لأن هذا فعل من أفعال الشياطين، فقام الطلاب الدينيون بشبه ثورة ولكن مسلحة وساعدهم الشعب وجمعوا لهم المال، وقاموا بمطاردة هذه المجموعات أو الميليشيات من مدينة قندهار مرورًا بكابول حتى استطاعوا أن يقضوا عليهم قبل وصولهم إلى الحدود الباكستانية.
هذه الواقعة أثرت كثيرًا في نفسية سكان مدينة قندهار، وجعلتهم مثل الخاتم في إصبع طلبة الدين، وانتشرت الثورة الدينية واستطاع رجال *طالبان* التحكم في قندهار ثم كابول وبقية المدن، وتزحزح أحمد شاه مسعود إلى الشمال ولكنه ظل صامدًا ولديه أنصار وهناك كثيرون لم ينضموا للحركة الدينية.
ويستكمل الشاب المثقف حديثه عن مسعود: *داهية وله وزنه الذي لا يستطيع أن ينكره أحد خاصة عندما ضرب على وتر القوميات، لقد أبعد أنصاره عن نقطة الدين تمامًا وقال: *إن الجنوبيين أو البوشتو وهم رجال طالبان الذين ينتمون إلى هذه القومية، متخلفون وليس لهم أي دراية بالقتال أو بالسياسة وسيعودون بالبلاد للوراء، ثم كيف يحكم هؤلاء الهمج الجنوبيون وهم الأقل من الناحية العرقية، بقية الشعب الأفغاني الذي ينتمي إلى أصل «طاجيك» و*أوزبك*. بهذا المنطق صمد «مسعود» وهذا عكس ما فعله رباني وحكمتيار، عندما طلبا من جنودهما التصدي للطلاب الدينيين، فكان رد الجنود ينحصر في العبارة التالية *نحن لا نرفع السلاح في وجه ناس تحمل القرآن في قلبها* أو *لا تجعلني أتخاصم مع الله بل أتخاصم معك*.
تلك هي اللعبة التي نجح فيها أحمد شاه مسعود ومن خلالها ظل صامدًا فهو رجل داهية ومحلل سياسي كبير*.
ما إن دقت العاشرة مساء حتى انتفض الشاب الأفغاني مستأذنًا بالانصراف فلقد حان موعد حظر التجوال، ومن المتوقع أن نسمع صوت القنابل مدوية في منتصف شوارع العاصمة الأفغانية، فرجال شاه مسعود لا تغمض لهم

عين.
الكهرباء تنقطع كثيرًا في الفندق فأعيش في ظلام دامس، فيما عدا بصيصًا من ضوء شمعة صغيرة.
الجو حار لدرجة أنني في لحظات كثيرة كدت أن أموت من الحر فتصبح موتة مضحكة، مراقبة فلا أستطيع أن أبدل ملابسي، لا وجود للتلفزيون أو حتى لراديو غير مفهوم، فهي أشياء محرمة.
أحاول أن أعرف للنوم طريقًا دون جدوى، ولكن على الاستعداد والتفكير في الإجابة عن سؤال مهم هو: كيف يعيش الناس ولكي أجيب يجب أن أصل للناس وأتحدث معهم كيف لا أعرف؟

٩

المدرسة السرية

كيف يعيش الشعب الأفغاني؟ وبالعامية *الناس في أفغانستان عايشة إزاي؟ *.

وهل نجحت حركة *طالبان* في تقديم حلول للفقر والجوع الطاحن الذي يتعرض له الأفغان؟ وكيف ترى المرأة الأفغانية نفسها وقد حرمت من التعليم وسجنت وراء *الشادوري*؟

وما حقيقة الدور الذي تقوم به منظمات المساعدات الدولية مثل *الأمم المتحدة والصليب الأحمر*؟

أسئلة ثقيلة تحتاج لا محالة إلى إجابات، فهل تسمح لنا ظروف الحصار الذي فرضته علينا وزارة الخارجية بالإجابة؟ هل ترحمنا عين المرافق الذي بات مراقبًا لكل صغيرة وكبيرة لخطواتنا، بدءًا بالتجول في شوارع كابول والحديث مع ناسها؟

بالتاكيد الإجابة صعبة ولكنها ليست مستحيلة.

بمعجزة ربانية استطعنا أن نكون أحرارًا في العاصمة الأفغانية، تلخصت في اعتذار مراقبنا عن المجيء لاصطحابنا كالعادة كل صباح من الفندق، ليؤجل موعد جولتنا بعد صلاة العصر.

وأخيرًا نتنفس الصعداء ونقرر بلا تردد أن نخرج وحدنا من الفندق.

جميلة وعبقرية وممتعة الحرية، هكذا كان إحساسنا ونحن نتحرك دون أي توجيه أو رقابة من أحد، كثيرة هي الأسئلة التي تحاصرنا، إذ كيف نتغلب على حاجز اللغة بيننا وبين الناس، وكيف ندخل بيوتهم ونجالسهم لنتعرف منهم على أدق الأمور.

ورقة صغيرة كان قد دسها في يدي الطبيب المجهول الذي التقيناه في بيشاور واصطحبنا إلى مدينة جلال آباد، لا أعرف كيف نسيتها في ظل كل هذا الزخم الذي نعيشه، كان قد كتب لنا فيها اسم صديقه الطبيب نور أصفهاني وعنوانه تفصيليًّا في أحد أحياء كابول، وطلب منا أن نذهب إليه إذا احتجنا شيئًا، ويبدو أن دوره قد حان.

بلا تردد كنا في أحد التاكسيات متجهين لمنزل الرجل الذي ارتاب في البداية، وسرعان ما هدأ عندما ذكرنا له اسم طبيب جلال آباد، رحب بنا الرجل وغاب كثيرًا تاركًا بين أيدينا أكواب الشاي ويبدو أنه كان يتأكد من شخصياتنا أو يتواصل مع صديقه.

أصفهاني كان بمثابة ثروة لا تقدر بثمن، بل نقطة مياه غالية في صحراء قاحلة بالنسبة إلينا، إذ كان همي الثقيل هو فكرة الوصول إلى البسطاء المنتشرين في شوارع كابول، أريد أن أتحدث معهم، أسمع منهم كيف يواجهون الفقر والجوع ما المهن التي يعملون بها؟ وكيف ينظرون إلى رجال *طالبان*؟ هل

هم راضون عن تلك الحياة؟ أم أن هناك تذمرًا كامنًا في النفوس؟
اصطحبنا الرجل في سيارته الخاصة في جولة سريعة في شوارع وأحياء المدينة، لفت نظري بعض عبارات كتبت بلغة *البشتو* على جدران المنازل والوزارات، طلبت منه أن يترجمها لي باللغة العربية التي يجيدها؛ فكانت أهمها تلك التي تقول *الإسلام المقدس يحرم استعمال المواد المخدرة*.
ابتسم الرجل ساخرًا، وهو يترجمها ثم قال: الطالبانيون يحرمون حتى الهواء الذي نتنفسه.
سألته: *لماذا لم تهاجر لأي بلد آخر كما فعل الكثيرون؟*.
- *كل من يترك وطنه وقت الشدة ليس له وصف سوى جبان. أحب وطني وأعتز به، دوري هنا وسط التوترات والحروب والكوارث هو مواجهة هذا الكم من التخلف والوقوف أمامه، صحيح أنني لا أملك سلاحًا سوى عقلي، ولا أمتلك *آر بي جي* أو مدافع رشاشة، ولكنني سأنتصر في النهاية*.
قلت: *لدينا مثل مصري شهير يقول *يد واحدة لا تصفق* فكيف لك وحيدًا مواجهة تلك العمائم؟*.
- *لست وحيدًا وليس صحيحًا أن يدي هي الوحيدة التي تحاول التصدي، على تلك الأرض التي نسير عليها توجد معارضة قوية، ولكنها تعمل سرًّا وتجند الكثيرين من الشعب الأفغاني المكلوم، لنا دوائرنا السرية وتنظيماتنا القوية داخل كل الأقاليم الأفغانية، وخاصة في *قندهار* معقل حركة *طالبان* ومركز الأخطبوط الملقب بأمير المؤمنين، نحن في طريقنا لحشد أكبر قوة من الشعب لنتخلص من تلك الآفة المظلمة*.
قطع حديث الرجل معي مبنى من أفخم ما يمكن، ولكن يبدو أنه قد أصبح مهجورًا لا صاحب له قبل أن أسأله أجابني:
- *ذلك هو *المستشفى الإيطالي* أغلقته أيدي جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في وجه المرضى وطردتهم.
أعرف صديقًا لي دخل المستشفى لإجراء عملية استئصال الطحال، وبعد ساعة واحدة من إجراء العملية هاجمت جماعة الأمر بالمعروف المستشفى وطردت المرضى، فلقي الرجل حتفه في نفس اليوم الذي طرد فيه، أي إسلام هذا الذي يعطي الحق لهمج أن يلقوا بمرضى تحت العلاج إلى الخارج؟ *.
- *ولماذا تم إغلاق المستشفى؟*.
- *لسبب أحمق، وهو أنهم عرفوا أن هناك سيدات يعملن بمهنة التمريض داخل المستشفى، بل ويرتدين زي التمريض العادي دون ارتداء *الشادوري*، وأيضًا هناك أطباء رجال يعملون في نفس المستشفى، إذن يحدث الاختلاط وهو من الكبائر لديهم*.
ساد الصمت قليلًا فوجدتني أحادث نفسي: هزل.. أم عبث.. أم ماذا؟ المهم أن هذا شيء لا يصدقه عقل ونحن في القرن الواحد والعشرين، حتى إن مهنة

التمريض تتسم بالملائكية، والزي الذي ترتديه الممرضات يدخل البهجة على قلوب المرضى الذين ابتلاهم الله سبحانه وتعالى، فتصوري كيف ستكون حالة المريض إذا دخلت عليه الممرضة وهي ترتدي تلك الخيمة التي يطلقون عليها *الشادوري*؟ أظن أن الرعب سيدب في قلبه بل ومن المحتمل أن يصاب بأزمة قلبية.
- *أريد أن ألتقي مع سيدات.. فهل من فرصة؟*.
- *المسألة في غاية الصعوبة، ولكن لدي بعض الأصدقاء سوف نذهب إليهم على الفور، ويمكن لك أن تقابلي زوجاتهم، ولكن لا يأخذك الوقت معهن ولا تنسي أننا نتحرك في سرية تامة، ولو اكتشف أحدهم أمرنا سنذهب إلى حيث لا ندري*.
منزل واحد هو الذي ذهبنا إليه، وبقدر فقره وتواضعه الشديد بقدر نظافته وتأنقه، على الفور وجدت نفسي في حجرة صغيرة وحدي، لحظات ودخلت سيدة ترتدي *الشادوري* وما إن رفعته ظهرت ملامح فتاة في العشرينيات من العمر.
سبحان الخلاق فيما خلق، هكذا حدثت نفسي وسرعان ما تبادلنا الحديث الذي كان لحسن الحظ باللغة العربية سألتها مباشرة:
- *أين تعلمت اللغة العربية؟*.
- *في المدرسة عندما كانت لدينا مدارس نتعلم فيها، أحببت اللغة العربية وكنت أتمنى العمل بمهنة التدريس وخاصة بتلك اللغة، فيكفي أنها لغة القرآن الكريم. كدت أن أنتهي من دراستي الثانوية، ولكن جاء القرار بإغلاق مدارس الفتيات، فتزوجت وجلست كما ترين في المنزل، أنجب الأولاد وأرعى زوجي وأدير شؤون منزلي*.

- *وهل أنت راضية عن تلك الحياة؟*.
- *وماذا لو لم أرضَ ما الذي سيتغير؟ أفضل شيء أن أقنع بما قسمه لي الله سبحانه وتعالى*.
فاجأتني عندما قالت: *كل ما أتمناه ألا أنجب فتاة أبدًا، لماذا تجيء فتاتي إلى الدنيا فتجد نفسها محرومة من أبسط الحقوق والتعليم، ومرغمة على أن تكون حبيسة منزل وأوامر زوج؟ حقًّا لا أريد أن أنجب فتاة*.
ساد الصمت بيننا لوهلة ثم سألتها بحدة:
- *هل هذه هي النهاية. هل استسلمت نساء أفغانستان إلى تلك الأوامر الطالبانية التي حكمت عليكن بالحرمان من التعليم؟*.
أجابتني بتحدٍّ: *نحن شعب تعودنا على الإصرار، شعب عنيد بطبعه، لدينا بعض المدارس الخاصة التي تفتحها بعض السيدات سرًّا في بيوتهن ويقمن بتعليم الفتيات وعقد امتحانات ومنح درجات، ولكن سرًّا ولو علمت جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لقتلتنا جميعًا*.

- *هل تعرفين واحدة منهن؟*.
- *جارتي تسكن بجانبنا يمكن لك أن تزوريها، ولكن الأفضل أن تأتي هي إلينا وسوف أرسل لها الآن ابني الأكبر*.
سرعان ما كانت أمامي ناظرة المدرسة السرية. سيدة عادية جدًّا تقترب من الثلاثين. وجهها يتمتع بقوة وصلابة ليست عادية، قبل أن أوجه لها أسئلتي وجدتها تتكلم لتجيب عما يدور في ذهني:
- *أنت عربية، ولأول مرة يجيء إلينا عرب، كل من يأتين هنا صحفيات أجنبيات وكثيرًا ما عقدت مقابلات معهن، ولم أخشَ تلك الحركة الهمجية التي لم تجد سوى النساء باعتبارهن من القوى الضعيفة في المجتمع، لتصب حقدها وضعفها علينا، ولأنك أول صحفية عربية تدخلين إلى أفغانستان وتتحملين عناء شديدًا من أجل مقابلتنا، فسوف أحملك رسالة هي أمانة ومسؤولية انشريها على صفحات جرائد كل الدول العربية والإسلامية، رسالة من سيدة أفغانية محبوسة في خيمة ظلامية يقولون عنها *الشادوري* ذلك الذي يجعل المرأة بلا ملامح، مثل العفريت أو الكابوس عندما أرتديه أشعر وكأنني أقول للرجال ابتعدوا عني لأني فتنة، إنه يشعرني بأنني خلقت من أجل أن أكون إناء للرجل. رسالة اعتبريها باسم كل السيدات الأفغانيات اللاتي حرمتهن حركة «طالبان» حق التعليم، وحق الحرية، وحق العمل، قولي للعالم العربي: إن الأفغانيات يستنجدن بكم، قولي لهم على لساني أنقذونا من هؤلاء الهمج، خلصونا من حركة طالبان*.
بيدو أن صوت المرأة كان عاليًا ويبدو أن هناك خطرًا ما لاح في الأفق، فطلب مني أصفهاني سرعة التحرك.
في لمح البصر كنا بالخارج في السيارة لنستكمل بقية الرحلة السرية.

١٠

إنهم لا يأكلون اللحم

منذ اللحظة الأولى التي خطت فيها أقدامنا داخل الحدود الأفغانية، وسيارات المساعدات الدولية الخاصة بالأمم المتحدة والصليب الأحمر تروح وتجيء في كل الأوقات.

مشهد يوحي بأن عملها يتم على قدم وساق، وأن المساعدات الدولية تصل إلى المواطنين حتى قبل مواعيدها لتسد الأفواه الجائعة، ويبدو أن أصفهاني قد لاحظ نظراتي المتسائلة عنها ففاجأني بالقول: *إنها سيارات النصب والفساد الدولي*.

هؤلاء أفاقون ونصابون ومنافقون ولصوص، تصوري ميزانية الصليب الأحمر التي من المفترض أن تقدم لأفغانستان وحدها تقدر بـ ٧٥ مليون دولار، لا يقدمون لنا سوى ثُمن الميزانية والباقي في جيوبهم، لديهم هنا أفخم المكاتب وفي أحسن الأماكن ورواتبهم تتراوح بين ٢٠ و٣٠ ألف دولار، وأي سيارة خاصة يركبونها يقدر ثمنها بـ٥٠ ألف دولار. وسوف أحكي موقفًا ليبرهن لك بأنهم لصوص، المستشفيات التابعة للصليب الأحمر لا يقدمون فيها وجبة لحم للمرضى، وعندما سُئل فردريك إستاتفور المنسق العام للصليب الأحمر في أفغانستان، عن سبب عدم تقديم وجبة اللحم للمرضى أجاب قائلًا: *الطعام الذي نقدمه يكفي المريض وهو مصدق عليه. ثم إن كل الأفغان لا يأكلون اللحم ولا يعرفون رائحته، فلماذا نقدم لهم ما لا يعرفونه؟ هذا في حين أن هناك بعض اللجان مثل لجنة الدعوة الإسلامية، تدير مشاريع تفوق ما يديره الصليب الأحمر وتكاد ميزانيتها لا تصل إلى عشر ميزانية الصليب الأحمر، تقدم وجبات ويتم توزيعها بطريقة منظمة ومرضية للغاية*.

سادت حالة من الصمت في السيارة كنت أتأمل فيها بصمات الفقر التي لاحت على وجوه وملامح البشر.

باعة كثيرون يفترشون الهواء على الأرصفة في محاولة جادة لبيعه

ماذا يبيعون؟ حقًّا لا أعرف. فاكهة جار عليها الزمن، وأنواع من الخضار العفن، وبعض من حلوى التوت، وأقمشة مهلهلة وأحذية مهترئة استعمال عاشر وعشرين، شيء تحزن له القلوب!

وسط كل هذا تجد عربات جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تدور بالميكروفونات تدعو الناس لإغلاق محالهم، والاتجاه إلى المساجد للحاق بصلاة الظهر أو العصر أو المغرب جماعة، وفي وقت الصلاة يدورون بسياراتهم مرة أخرى وإذا ضُبط أحد وقد فتح محله يُقبض عليه فورًا.

ولماذا يدورون بسياراتهم في نفس موعد الصلاة ليفتشوا وينقبوا عن الساهين عن صلاتهم؟ لماذا هم أنفسهم لا يؤدون الصلاة؟

شيء تحتار له العقول.

كادت الساعة أن تقترب من العاشرة مساء.. لقد حان موعد إعلان الموت أو حظر التجوال في مدينة كابول، لتتحول إلى مدينة الأشباح كما يطلقون عليها.
كان علينا أن نودع أصفهاني الأفغاني، الذي أرسله لنا الله ليفتح لنا طرقًا مجهولة كان من الصعب فتحها أو الخوض فيها أو حتى معرفتها دونه، خاصة ونحن تحت سيطرة من لا ترحم عيونه سواء داخل الغرف أو خارجها.
ولكن عليّ الصبر، فالمهمة ما زالت أمامي ثقيلة وطويلة كما يقول المثل: *ما لا يدرك كله لا يترك جله*.

١١

وبكينا على حطام بوذا

نقف علي أطلاله ونتأمل بقاياه المتناثرة أشلاءً.
نسمع صوته مستغيثًا من الفضاء البعيد.
من أجله وقف العالم على قدم وساق في محاولة للحاق به، ولكن لا جدوى ولا فائدة.
نالت منه الأيادي ودمرته العمائم فراح جثة هامدة.
بوذا أو *الرجل المستنير* الذي فجرته أصابع الديناميت، إليه ذهبنا في مدينة الأصنام، هكذا يطلقون عليها، ذهبنا إلى *باميان**.
توقعاتنا الخاصة بصعوبة الحصول على موافقة وزارة الخارجية وسماحهم لنا بالسفر إلى مدينة باميان لم تأت في محلها، بل على العكس، لقد كانت زيارة تماثيل «بوذا» التي دمرتها حركة *طالبان*، من أحد أهم مقترحات المسؤولين التي تضمنها برنامج عملنا في أفغانستان، بل إني أحسست أن هناك نوعًا من الإصرار والرغبة الجارفة لديهم في القيام بتلك الزيارة.
إصرار دفعني لسؤال المتحدث الرسمي الناطق باسم وزارة الإعلام والخارجية:
- *هل تعرف أني توقعت أن ينال طلبي بالسفر إلى مدينة باميان رفضًا محققًا من قبلكم، خاصة بعد أن اهتز العالم بأجمعه واعتبر تدميركم لتماثيل بوذا جريمة في حق التاريخ والإنسانية؟*.
رد الرجل واثقًا:
- *لا يهمنا العالم. وليس لدينا ما نخفيه أو نخجل منه، بالعكس نحن فعلنا فعلة نفخر ونتفاخر بها، ولأنك أول صحفية عربية تقطع هذا المشوار وتدخل إمارة أفغاستان الإسلامية لتنقل وجهة نظرنا إلى المسلمين العرب، فنحن حريصون لهذا السبب على زيارتك لمدينة باميان لكي تنقلي للعالم رسالتنا وتقولي لهم: *لقد جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا**.
لم أناقش الرجل في منطقه، ولم يكن مطلوبًا مني أن أدخل معه أو مع رجال *طالبان*، في مناظرة أو مجادلة سوفسطائية لا داعي ولا نهاية لها.
التزمت الصمت تمامًا بل حاولت أن أرسم على ملامح وجهي الرضا والارتياح عما يقوله، فقد كان همي الأوحد هو السفر والذهاب والوقوف على أطلال تماثيل بوذا.
المسافة من مدينة «كابول» العاصمة الأفغانية إلى *باميان* مدينة التماثيل الأصنام ٤٨ ساعة بالسيارة. والحقيقة أن المشكلة لم تكن في المسافة أو طول الطريق، فقد كنا على استعداد تام لخوض هذه الرحلة
لولا تحذيرات المسؤولين بوزارة الخارجية، والتي تلخصت في أن الطريق في منتهى الخطورة، فبعيدًا عن أنها طرق جبلية وعرة ليست ممهدة أو مرصوفة،

تشبه تمامًا الطرق التي تربط بين مدينة «جلال آباد» و*كابول* والتي أكلنا فيها علقة ساخنة وذابت فيها عظامنا، بعيدًا عن كل هذا فالطريق إلى باميان محفوف بمخاطر أنصار أحمد شاه مسعود، فقد تتعرض سيارتنا للتفجير أو الاختطاف.
إذن ما الحل.. كيف نسافر؟ سؤال وجهناه لكثيرين، فكانت الإجابة حاسمة قاطعة واحدة: لا حل سوى أن تستأجروا طائرة، فالطيران الداخلي مسموح به، وفي نصف ساعة لا أكثر ستجدون أنفسكم في قلب مدينة باميان.
- وكم ندفع لكي نستاجر الطائرة؟
جاءت الإجابة هادئة على لسان المسؤولين في وزارة الخارجية: ٢٥٠٠ دولار للفرد الواحد.
يا لها من فجيعة، فالمبلغ ثقيل وليس بمقدرونا أن ندفع كل هذه الدولارات، فهل نغلق الستار معلنين النهاية، هل ستقف النقود حائلًا بيننا وبين حلم السفر إلى أنقاض تماثيل بوذا؟
ليلة كاملة حاولنا فيها أن ندبر الأمر، وقضينا ما يقرب من ٣ ساعات مع مسؤولي حركة *طالبان* في مفاوضات لتخفيض هذا المبلغ، إلى أن أرسله لنا سبحانه وتعالى الذي لم يتخلَّ عنا طوال رحلتنا.
الصحفي الياباني الذي اقتحم جلستنا مع مدير مكتب وزير الإعلام وأعلن عن رغبته في السفر إلى باميان، وتصوير تماثيل بوذا.
تلاقت رغباتنا فقررنا أن نقوم بالرحلة سويًّا في صباح اليوم التالي.
لم أنشغل بالاتفاقات والمفاوضات التي كان يجريها زميلي المصور مع الصحفي الياباني والخاصة بموعد السفر والدولارات التي سنقوم بدفعها.
كانت أذني تستمع جيدًا لتعليقات مجموعة رجال طالبان الجالسين معنا في الغرفة، وكانت عيناي تتأملان ملامح وجوههم الكارهة للصحفي الياباني الذي يؤمن بعقيدته البوذية، ولأن الرجل لا يفهم اللغة العربية فلم يدرك أنه كان مثارًا للسخرية والضحك، لم يعلم أنه قد أصبح كما يقولون في مصر مثل *الأطرش في الزفة*.
ولأني أتذكر جيدًا تلك التعليقات الطالبانية، التي شعرت بأنهم يتحدثون بالعربية وكأنهم يريدون لي أن أفهمها جيدًا، فسوف أنقلها على الورق لعلها تقرب المسافات بين عقلك كقارئ وبين ما تحمله تلك العمائم.
أحدهم الذي تصل لحيته لنصف الصدر نظر للياباني نظرة دموية لا تخلو من العنف وبقرف شديد همس للجالس بجانبه قائلًا: *كافر وزنديق يريد أن يسافر إلى باميان لبيكي على أصنامه*.
رد الآخر: *أتعلم أنه يشبه هذا الذي يطلقون عليه بوذا، من الممكن أن يكون ابنًا له أو أخًا أو حتى من أولاد أعمامه*.
*الكفرة رائحتهم دائمًا ما تكون كالقبر. الغريب يا أخي أن رائحته كريهة لا يتوضؤون ولا يغتسلون، بالإضافة إلى المنكر، الذي يكوي أمعاءهم،

تأمل وجهه جيدًا ستجد منخاره يشبه حيوان الكنغر تمامًا وفمه مثل الفأر*.
اكتفى الآخر بابتسامة ساخرة، ونظرة مستفزة، أحسست أنني جالسة كما يقولون على جمر النار، وحالة من الغليان وفوران الدم، تسربت إلى عروقي، كدت أن أرفع صوتي عاليًا وكدت أن أنفعل، ولا أعرف لماذا رأيت عناكب ذات أذرع متشابكة تشبه تلك التي يحملها الأخطبوط، رأيتها بلا مبالغة تخرج من عمائمهم السوداء التي يرتدونها فوق الرؤوس.
رحت بعيني لوجه الياباني وجدته منكسرًا حزينًا، استطعت أن أدرك هذا تمامًا رغم أني لا أعرفه مسبقًا، وتلك هي المرة الأولى التي أراه فيها بل كان من السهل أن يقتحمني إحساسه بالغربة والوحشة والحنين أيضًا.
ترى كيف يكون حاله عندما تقع عيناه على رأس تمثال «بوذا» ملقى على الأرض أو ذراعه وقد تحول إلى أشلاء؟
ترى ما حالته الآن وهو جالس وسط الأيدي التي صدمت تمثاله الروحي؟ كيف ينظر إليهم؟ وكيف يتعامل أساسًا معهم؟
أسئلة كثيرة كادت أن تلتهم رأسي، وعلامات استفهام قررت أن أضعها بين يدي الصحفي الياباني ليجيب بنفسه عنها، ولكن المهم أن يتم الحوار بيننا بعيدًا عنهم حتى يستطيع الرجل الحديث بحرية ودون أي ضغوط لأننا في النهاية تحت رحمتهم.
أخرجني زميلي المصور من حالات التأمل والاستفهام التي طالت كثيرًا، وقال لي المفيد بأننا سندفع ١٠٠٠ دولار ونغادر كابول إلى *باميان* عبر الطائرة في صباح الغد.
مطار كابول أبعد ما يكون عن كلمة مطار. شيء تقشعر له الأبدان وتُدمى له القلوب، تستقبلك وجوه طحنها الفقر والجوع، فانطلقت خالية الوفاض تمد أيديها لبعض السائرين الذين ليسوا بالطبع أحسن حالًا.
غرف مهدمة ولافتات مكسورة رائحة تشبه كثيرًا تلك التي تفوح من المراحيض العامة في شوارع مصر.
تدخل بقدميك إلى أرض المطار فينتابك لا محالة إحساس بانقباض في عضلة القلب، الطائرات وقد كتب علها باللغة العربية و*البشتو*: *الخطوط الجوية الأفغانية* تقف مكتوفة لا حول لها ولا قوة ساكنة بلا حراك.
لا أعرف لماذا أحسست أن محركها في حالة اشتياق للطيران عاليًا في السماء، سمعته يحادث نفسه ويمنيها ولكن لا حياة لن تنادي.
طائرة صغيرة من طائرات الجيش ما إن تدخلها بقدميك إلا وتشعر بالبؤس يرتسم على كل ملمح من ملامحها، بدءًا من الكراسي والشبابيك وحتى كابتن الطائرة الأفغاني.
كنت أظن أننا سنكون خمسة؛ أنا والزميل المصور والصحفي الياباني ومرافقينا، فجأة وجدت بلا مبالغة ما يقرب من ٢٠ رجلًا طالبانيًّا معنا في الطائرة.

سألت المرافق:
- *لماذا كل هذا العدد من الرجال؟ هل معنا أم أنها توصيلة لمدينة باميان؟*.
أجابني:
- *إطلاقًا، هم خصيصًا من أجل الدفاع عنا وحمايتنا، فالمدينة قد تكون ملبدة بعناصر من أنصار أحمد شاه مسعود*.
بالمناسبة كل الرجال كانوا يحملون أسلحة رشاشة، لدرجة أنني أحسست بأنني على مشارف الدخول إلى جبهة القتال.
رغم البؤس والفقر والحصار، لم ينس طاقم الطائرة أن يقدم لنا وجبات وبعضًا من عصائر، كدت أبكي، إن لم أكن فعلتها، عندما رأيت المضيف يعد لنا الوجبات على أرض الطائرة، لقطة أعتقد أني لن أنساها ولن أراها إلا في بلد قتله الحصار، وهو الذي اختار بنفسه تلك الطريقة الانتحارية في الموت.
وما الطائرة إلا محرك كبير. هذا هو أول انطباع يتسرب إليك ما إن تبدأ في الإقلاع، الصوت يصم الآذان ويجعلك على هاوية الانتحار.
أتذكر أننا كدنا أن نفقد حياتنا جميعًا نحن ورجال *طالبان*، عندما كادت الطائرة أن تسقط بنا ٤ مرات على التوالي لتلقي بنا أشلاء وسط جبال صخرية عتيقة. يا لها من موتة مفجعة ومفاجئة في بلد مثل أفغانستان.
فاجأتني مدينة باميان منذ اللحظة الأولى التي حطت فيها قدماي على أرضها، ومن كان يتابع أخبار الإمارة الأفغانية كان سيدرك تمامًا أنها الأرض التي تدور فيها الحروب الضروس بين أحمد شاه مسعود و«حركة طالبان» ويقع فيها الضحايا والموتى.
هذا بالطبع قبل وقوع أكبر حادثة هزت العالم وهي تدمير التماثيل.
توقعت أن أجد مدينة تشبه «كابول» العاصمة، فوجدتها تشبه تمامًا القرى الصغيرة في الريف المصري.
نائية ومنسية يعمل أهلها بالزراعة، واللافت للنظر أن السيدات لا يرتدين *الشادوري*، وما إن وقعت أنظارهن علينا سائرين وسط الحقول محاطين بالطبع برجال *طالبان*، كن يجرين بعيدًا أو يختفين بين الأعواد الخضراء المزروعة. أعتقد أنهن اعتقدن أن هؤلاء هم رجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
ما يقرب من ١٠ كيلومترات سيرًا على الأقدام وسط حقول ومزارع وطرق غير ممهدة ومناطق جبلية، رأينا في هذا المشوار الذي تميز بسخونة جو لا مثيل لها، تضاريس الدنيا في آن واحد ولا حل سوى السير؛ لأنه ببساطة لا وجود للسيارات أو المواصلات.
من بعيد ظهرت كتلة جبلية منحوتة، لم أستطع أن أميز من بعيد هل عوامل التعرية التي جعلت من الجبل تلك التحفة الفنية أم أن هنالك أيدي بشرية قد شكلتها.
هذا هو مكان الأصنام.. عبارة قالها مولاي محمدِ حنفي المرافق الذي كان

يتبعنا، ليعلن بها قرب وصولنا إلى المكان ودون أي مقدمات، وما إن وصلنا إلى مكان التماثيل، هتف رجال *طالبان* الذين يبلغون 20 بالتمام والكمال في مظاهرة حاشدة: *الله أكبر. الله أكبر.. لا إله إلا الله وقل جاء الحق وزهق الباطل.. إن الباطل كان زهوقًا*.
لم أسأل نفسي كثيرًا. فقط انتابتني حالة من الضحك الهستيري حاولت أن أخفيه بالإيشارب الذي أحكمته تمامًا على رأسي، وسرعان ما نسيت الضحك لتتوقف أذني عن السمع، قد أكون فقدت حواسي كلها أمام ما رأته عيني.
تحفة فنية نادرة، شيء لا يستطيع القلم وصفه، ولكن تخيل أنك بالضبط أمام معبد أبو سمبل الذي بناه رمسيس الثاني في محافظة أسوان.
الشبه بين تماثيل بوذا المحفورة، أقصد التي كانت محفورة، في حضن جبال مدينة باميان وبين معبد أبو سمبل شبه مخيف، وبالتالي جاء الإحساس بالحزن والغيظ مضاعفًا. لم يكن حزنًا فقط على تلك التحفة الأثرية التي راح دمها هدرًا على أيدي رجال لا يعرفون للنور طريقًا، ولكن جاء الشعور مضاعفًا لأني تصورت للحظة أن تلك الأيدي الغادرة قد نالت من معبد أبو سمبل واعتبرته صنمًا من أصنام الكفرة.
كان صوت القرآن الكريم عاليًا بدرجة كانت كافية تمامًا لكي أفيق من حالة التأمل والغيظ التي انتابتني.
سألت زميلي المصور:
- *من أين يأتي هذا الصوت؟*.
أجابني:
- *الرجال صحبوا معهم جهاز تسجيل كبيرًا في الطائرة، ومنذ اللحظة الأولى التي وصلوا فيها وضعوا شرائط للقرآن الكريم مصحوبة بترجمة للغة *البشتو**.
تلفتُّ حولي فاذا بآية *وقل جاء الحق وزهق الباطل.. إن الباطل كان زهوقًا* وقد كتبت على كل أرجاء الجبل، أنقب بعيني على أثر ولو حتى صغير لجسد بوذا قد يكون ملقى على الأرض ولكن لا جدوى، لا مكان إلا لعدد لا يحصى ولا يعد من الأحجار الجبلية الثقيلة، وسط كل هذا التقطت عيناي دموع الصحفي الياباني التي حاول مرارًا أن يخفيها وراء عدساته التي ارتعشت بين يديه، كان يقف منكسرًا منزويًا يحاول التقاط بعض الصور لعلها تهدئ من روعه.
تلفت حولي فوجدت رجال *طالبان* وقد انشغلوا في التكبير والتهليل، ثم الضحك والسخرية من دموع الياباني التي بدت واضحة، أخذتني قدماي إليه في محاولة للحديث معه ووجدتني أسأله سؤالًا تقليديًّا:
- *بماذا تشعر الآن؟*.
صمت كثيرًا وحاول أن يمسح دموعة قائلًا:
- *نفس الشعور الذي ينتابك عندما يهدم أحدهم مكانك المقدس، بأي ديانة تؤمنين؟*.

- *الإسلام*.
- *إذن اسمحي لي أن أسالك نفس السؤال: ماذا سيكون شعورك عندما يهدم أحد المسجد الأقصى أو الكعبة؟*.
لم أجبه، آثرت الصمت والحق أشفقت عليه وشعرت بمدى أسفه وحزنه على ما حدث.
صحيح أنني لست بوذية وأنتمي إلى الدين الإسلامي، ولكن الإسلام لم يكن يومًا ما دين تعنت وتخلف، بل احترم الأديان الأخرى. وأيًّا كان -مع الديانة البوذية أو حتى أي ديانة أخرى- اختلافنا فهذا لا يتعارض أبدًا مع احترام مشاعر الآخرين ومعتقداتهم وأماكنهم المقدسة عملًا بالآية الكريمة *لكم دينكم ولي دين*.
لم أكمل مع الرجل، أو هو الذي لم يكمل حديثه معي خاصة بعد أن حمل حقيبته الملقاة على الأرض، وتحرك بخطى سريعة والمفاجأة هو الطلب الغريب الذي طلبه مني عندما قال لي بالحرف:
- *أرجوك لا تذكري اسمى في تحقيقك الصحفي، لأني بحكم عملي ومنصبي في مؤسستي الصحفية التي أعمل بها في اليابان، أضطر أسفًا للسفر إلى أفغانستان وبالتالي أتعامل مع رجال *طالبان*، ولا أريدهم أن يفسدوا عملي في أي مرة أقرر فيها دخول هذا البلد، بالإضافة إلى أنهم خطرون وعلى درجة عالية من العنف، وأنا من الشخصيات المحبة للحياة. هكذا علمنا القدير بوذا*.
تركني الرجل فرحت أجر قدمي وأنظر إلى وجوه رجال *طالبان*، شغلتني كثيرًا فكرة الدخول إلى عقولهم لأعرف ما الذي يدور بالضبط، فتماثيل بوذا موجودة منذ ١٥٠٠ عام في أفغانستان و«طالبان» لم تأت للحكم إلا منذ سنوات، فلماذا لم تكتشفها قبل ذلك الوقت؟ ولماذا الآن بالذات؟
المضحك أن رجال *طالبان* قاموا بذبح ١٠٠ رأس ماشية تكفيرًا عن تأخرهم في نسف التماثيل كل هذا الوقت.
والشيء المثير للدهشة والعجب، هو انزعاج العالم كله مسلمين وغير مسلمين لما تفعله أيدي تلك الحركة، رغم أن نفس العالم قد شارك في صناعة حركة طالبان لهدف أو لمصلحة ما، و*طالبان* كانت في فترة من الفترات الطفل المدلل للأمريكان و*الموساد*. فجأة تكتشف أمريكا أن حركة طالبان إرهابية، بل وتطالب بمحاكمتها تارة ثم تغزو أفغانستان وتدمر الأخضر واليابس وتسقط الحركة، ثم تعاود الرحيل تاركة *طالبان* تعود بقوة، أي زمن هذا الذي بات يرفع شعار المصالح تتصالح؟!
وتمر الأيام ويمضي عشرون عامًا في لمح البصر، وتعود *طالبان* في ٢٠٢١ وترحل ظاهريًّا أمريكا في صفقة مشبوهة محاطة بعلامات الاستفهام. تعود الحركة بنفس الوجوه والملامح والذقون تكذب وتتجمل في آن واحد، وما زالت وستظل تتفاخر بجريمتها الإنسانية في حق التاريخ والحضارة ويحول

موقع بوذا الأثري كمزار سياحي، مقابل خمسة دولارات للفرد *يا سلام على المفهومية ويا سلام على الإنسانية والله الله على النظرة التنويرية للسياحة*.

١٢

ثلاثة وجوه.. أولها متوكل

لم يكن ممكنًا أن أكتفي بالشارع الأفغاني في تلك المرحلة التاريخية التي يمر بها، ومن المستحيل أن أفوت الفرصة في لقاء المسؤولين في حركة *طالبان*، إذ كيف يحدث هذا وأنا في عقر دارهم؟

لذا طلبت من مرافقنا والمتحدث الإعلامي مقابلة العديد من وزرائهم، انتظرت طويلًا وألححت كثيرًا مقابل الاقتراب من عقولهم ورصد ونقل ما يدور بها.

لا أخفي أني كتمت ضحكي تارة وأخرى كظمت غيظي، وأعتقد أنني نجحت في النهاية في أن أقترب كثيرًا من منطقهم الذي لا منطق له، فالمختلف معهم كافر وزنديق، والمتفق من أهل الجنة. ومن بين العديد من اللقاءات معهم اخترت أن أقدم لك ثلاث شخصيات هي الأهم، خاصة أن الكثير من الجدل يحوم حولها: وزراء الخارجية، والأوقاف، والإعلام.

قبل أن يكون وكيل أحمد متوكل وزيرًا للخارجية، عين مستشارًا رسميًّا لأمير المؤمنين ثم المتحدث الرسمي للإمارة الأفغانية. رآه الكثيرون صاحب اتجاه معتدل، بل إن ألسنة خبيثة كانت تردد عن تغير الأمور على الساحة الأفغانية، إذا حدث وحصل متوكل على فرصة لتقلد الحكم.

كل هذا كان كفيلًا بأن يجعلني أتوق إلى مقابلته، ولكنني أعترف أن السبب المباشر الذي جعل لدي إرادة حديدية مصرة على لقائه هو أنه الصديق الصدوق للشيخ أسامة بن لادن، وهذا كان منتهاي في رحلاتي إلى أفغانستان، ألا وهو الحلم بمقابلته وإجراء حوار طويل معه، في وقت كان الرجل الأول الذي تسبب في أرق بلد عظمى مثل أمريكا.

وأخيرًا حددت وزارة الخارجية موعدًا لي مع وكيل أحمد متوكل لأكون أمامه في مكتبه بالوزارة وليدور بيننا حوار طويل أنقله بكل تفاصيله.

ما إن جلسنا في غرفة مكتبه البسيطة، حتى طالعنا بوجه لا يختلف كثيرًا عن وجوه رجال *طالبان*. بهدوء وبعد أن قدمنا المترجم له وبعد كلمات الترحاب بالمسلمين والمصريين على أرض الإمارة، طلبت منه إذنًا بالتصوير فأجاب بابتسامة هادئة:

- *ليس لدي مانع فليفعل المصور ما يريد*.

إذن هي بداية مبشرة، هكذا حدثت نفسي، استراح قلبي وبادرته بالسؤال:

- *أبدأ الحديث عن العلاقات التي تميزت بالتوتر والقلق بين إيران وأفغانستان، حتى إننا كنا نظن أن الحرب على الأبواب.. ترى إلى أين تسير العلاقة بين أفغانستان وإيران؟*.

- *بالفعل كان هناك العديد من التوترات بين البلدين منذ فترة ليست بعيدة ولكن هذا التوتر لم نبدأه نحن، ولم يكن من جانبنا، بل كانت نقطة الانطلاق

من عند إيران، ثم بدأت العلاقات في التحسن بيننا وبينهم خاصة بعد فرض العقوبات، كما أن هناك زيارات ووفودًا تروح وتجيء وإن كانت لم تعلن بعد، ثم إننا وإيران نلتقي دائمًا في شيء واحد؛ هو كرهنا الشديد للسياسات الأمريكية*.
- *يقال إن سبب الخلاف الرئيس بين إيران وأفغانستان في جوهره خلاف بين السنة والشيعة فما تعليقلك؟*.
- *في الأساس الدين واحد وهو الدين الإسلامي، والمذاهب كلها واحدة تصب في النهاية في ديننا الإسلامي، والخلاف بين الشيعة والسنة لا يعنى أبدًا خلافًا في الدين، لذلك أقول إن الخلاف بين الإمارة الأفغانية وإيران ليس خلافًا دينيًّا، وإنما هناك دائمًا اختلافات سياسية بين الدول الإسلامية تلخص في عدم وجود الخلافة الإسلامية، ومن المعروف أن ضعف المسلمين بدأ بانتهاء هذه الخلافة*.
- *من وجهة نظرك.. لو أن العالم أصبح إسلاميًّا كما تريدون، أين تكون الخلافة عندكم أم عند إيران؟*.
للمرة الأولى منذ بدء الحوار، ينظر إليّ وكيل متوكل نظرة صحبتها ابتسامة صمت قليلًا ثم أجاب:
- *كل شيء، على الله يسير، والعالم الحالي هو عالم الأسباب والمسببات وإيران دولة شيعية والمعروف أن الشيعة في الإسلام قلة والغالبية هم من السنة، وسؤالك لا أستطيع الإجابة عنه أكثر من ذلك؛ لأنه في حاجة إلى دراسة كاملة*.
- *أنتقل بالحديث إلى قضية التعليم، وهنا أخص المرأة الأفغانية التي سلبتها حركة *طالبان* هذا الحق؟*.
قاطعني قائلًا:
- *نحن لم نحرم المرأة من التعليم. ليس لدينا أي مانع من أن تكون المرأة فقيهة أو شيخة، المهم أن ترتدي الزى الإسلامي ولا تختلط بالرجال*.
- *كيف تريدونها فقيهة وأنتم أغلقتم المدارس الخاصة بالفتيات؟*.
- *نعم أغلقنا مدارس الفتيات؛ لأن إمكاناتنا لا تسمح بتعليم البنات والإنفاق عليهن. الآن، لا يوجد أحد يقدم لنا مساعدات سواء من الدول العربية أو الإسلامية، ثم إننا إمارة وليدة ليس لدينا منهج جديد يتوافق مع الأصول الإسلامية، نحن ما زلنا في حالة حرب وليس لدينا أي بنية أساسية، ونعاني من مشاكل في الكهرباء والمياه ولا نستطيع تعليم الأولاد أيضًا ونقوم بهذا العمل..*. .
بصعوبة قاطعته بالقول:
- *هذا يعني أنني سأسمع قريبًا عن إغلاق مدارس الأولاد أيضًا؟*.
- *الرجال ليسوا في حاجة إلى الحجاب، نحن قضينا 20 عامًا في حروب بالتأكيد نريد وقتًا لنقف على أقدامنا، نعترف بأن سلاح الدولة هو التعليم سواء

بالنسبة للرجل أو المرأة، ولكننا نسير بمنطق الأولويات الأهم فالمهم، وعندما نحقق الأمن والأمان في البلاد سنفكر في مشاكل التعليم والصحة*.
يبدو أن الرجل شعر بعدم اقتناعي فسألني عبر المترجم: *هل اقتنعت؟*.
أجبت دون تردد:
- *لم أقتنع. ولو كانت المشاكل الاقتصادية وضعف الإمكانات سببًا حقيقيًّا ومبررًا منطقيًّا لإغلاق مدارس البنات، لكانت دول العالم الثالث ودول أمريكا اللاتينية والهند وكل الدول الفقيرة التي تعاني مشاكل لا حصر لها قد أغلقت هي الأخرى مدارس تعليم الفتيات*.
ساد الصمت فترة أحسست معها أن الرجل لا يريد الرد أو لا يستطيع، ولأن جعبتي ما زالت مليئة بالأسئلة فانتقلت إلى سؤال آخر في منطقة مختلفة تمامًا:
- *من أين تحصل حركة طالبان على *التمويل* اللازم لاستمرارها في الحكم؟ *.
- *موقع أفغانستان من الناحية الجغرافية هام جدًّا، لدينا عائدات من الأراضي والجمارك وبالتالي ليس عندنا مصاريف زائدة*.
- *إجابة ليست شافية، فماذا عن باكستان الممول الرئيس للحركة؟*.
- *باكستان مديونة وعليها قروض بالمليارات، فكيف تستطيع أن تساعدنا؟ ومساعدات السعودية والإمارات كانت في حربنا ضد الاحتلال السوفيتي، وبعد الاستقلال لم يعد يصلنا أي تمويل*.
- *والملياردير أسامة بن لان.. ألا يساعدكم؟*.
- *ليت الشيخ أسامة بن لادن يساعدنا، ولكننا لم نطلب منه، الرجل يعيش في حمايتنا وليس من المعقول أن نأخذ منه ثمن حمايته*.
- *إذن ما الفائدة التي تعود عليكم من إيواء أسامة بن لادن؟ خاصة أن وجوده على أراضيكم يعد سببًا مباشرًا في حالة الحصار المفروضة على الشعب الأفغاني؟*.
- *نحن لا ننسى من وقف بجانبنا في حربنا الشرسة ضد الاحتلال السوفيتي، أسامة بن لادن ترك ملايينه وقصوره وحياته الملكية، وجاء إلينا من أجل الدفاع عن الإسلام، وقام بتمويلنا وقت الحرب، فكيف نرد له الجميل؟ هل نتقاضى منه نقودًا ثمنًا لحمايته،أم نسلمه لأمريكا الكافرة عدوتنا اللدود؟ كل ما نطالب به أن يحاكم بن لادن بالقانون الإسلامي، وليس بأي قانون آخر، ونحن نقولها صراحة أسامة بن لادن لن يخرج من أفغانستان إلا برغبته هو*.
- *بماذا يفسر السيد وكيل متوكل وزير خارجية الإمارة الإسلامية، هروب الآلاف من الأفغان إلى الخارج وخاصة باكستان بحكم أنها الأقرب؟*.
- *ليس بطشًا من حركة *طالبان* كما يظن البعض وكما تروج وسائل الإعلام الغربية، لسنا شياطين ليفر منا البشر وإنما الظروف الاقتصادية السيئة التي تعرضت لها البلاد، بسبب الجفاف في المنطقة والعقوبات القاسية التي

فرضتها الأمم المتحدة*.
- *وماذا عن المساعدات الدولية؟*.
- *الكلام دائمًا جميل، ولكن المساعدات الدولية متعلقة بالأمور الخاصة بالسياسات الأمريكية، ونحن في حالة حزن شديد لأننا لم نتلقَّ أي مساعدات من الدول الإسلامية والعربية، فكيف يكون بعالمنا 250 دولة إسلامية لم يعترف بنا سوى 3 دول فقط؟! وإذا كانت الأصولية تهمة يتهموننا بها فأقول إنها ليست جريمة.
نعم نحن أصوليون إسلاميون، ويكفي أن أقول إن الصليب الأحمر موجود في أفغانستان، بينما الهلال الأحمر ليس موجودًا، ثم يتحدثون عن أننا متعصبون في حين أنهم هم المتعصبون، ولنقرأ سويًّا الفاتحة على روح المؤتمر الإسلامي*.
- *لقد حرّمتم التلفزيون، فكيف لوزير خارجية مسؤول عن العلاقات بين بلده والبلدان الأخرى، أن يتعرف على آخر الأخبار؟*.
- *عندي *ستالايت*، وأشاهد من خلاله ما يحدث في العالم عبر القنوات المتخصصة في البرامج السياسية والأخبار والأحداث*.
- *هل نسمع في فترة قادمة عن تلفزيون ولو حتى إسلامي في أفغانستان؟*.
- *لن يكون هذا الخبر في فترة قريبة، وهذا يرجع أيضًا للأوضاع الاقتصادية وليس التحريم، أفغانستان لا يوجد في معظم أرجائها كهرباء ولا شبكة إرسال، وإن وجد فنحن نحتاج إلى متخصصين في وضع برامج تتماشى مع الشريعة الإسلامية*.

١٣

الملا عمر ليس نبيًّا

أرسلان رحماني، وزير الأوقاف والحج في الإمارة الأفغانية، عمل مدرسًا بعلم الفقه وأصول الكلام والأحاديث، عاش رحلة من الكفاح ضد الاحتلال السوفيتي تقرب من ١٤ عامًا، وعمل وزيرًا للإرشاد والأوقاف في حكومة رباني ثم نائبًا لرئيس الوزراء حكمتيار.

ذهبت إليه وجعبتي مليئة بعلامات الاستفهام الخاصة بفتاوى تدمير التماثيل، وزواج المتعة، وتطبيق الحدود والقصاص، وحدوتة العلاقة التي فرضتها *طالبان* على كل من لا يحمل ديانة الإسلام. ترى هل ستكون إجاباته تقليدية أم ستحمل مفاجآت.

غرفة واحدة بها كل متطلبات الحياة: سرير، مكتبة صغيرة تضج بالكتب والمجلدات الإسلامية فقط، وبعض أدوات المطبخ ملقاة بنظافة شديدة بجانب السرير. والأهم هو السلاح، الذي لم يفارق عيني في كل مكان أدخل فيه، بدءًا من المارة في الشوارع ومكتب وزير الخارجية وحتى مكتب أرسلان رحماني..

قبل الرجل الحوار معى بشرط أن أجلس بعيدة عنه وليس في مواجهته، وافق أيضًا على التصوير ولكن بشرط ألا يلتقط الزميل المصور أي لقطة له معي.

وافقنا على الشروط وبدأت معه الحوار وبادرته بالسؤال:

- *لتكن البداية عند الفتوى التي أصدرها أمير المؤمنين الملا عمر والخاصة بتدمير تماثيل بوذا*.

قاطعني قائلًا:

- *يجب أن يفهم الجميع أن الملا عمر ليس مفتيًا ولا يصدر أي فتوى، نحن في الإمارة الإسلامية لنا دار إفتاء واحدة وهي *المحكمة العليا*، التي تتضمن لجنة عليا خاصة ترتكز على الكتب والمراجعة والاجتهاد، ولذلك لم يصدر الملا عمر فتوى خاصة بهدم الأصنام ولكنه استفتى أو طلب الفتوى وأرسل الأمر إلى الشورى، وهذا يحدث في كل صغيرة وكبيرة، ليس من حق أمير المؤمنين أن يصدر أي فتوى وحده دون اللجوء، إلى الشورى*.

- *هل لي أن أقترب من تفاصيل ما حدث من مناقشات خاصة بتدمير التماثيل؟*.

- *عندما أرسل الملا عمر، لمجلس الشورى طالبًا رأينا في مسألة أصنام الكفار انقسمت الآراء، البعض قال: نقوم بالتكسير والهدم على الفور، والبعض الآخر كان يرى أن نكسر *أعناق* الأصنام فقط حتى لا تكون الحياة باقية، ولكن استقر الأمر في النهاية على الهدم والتفجير بالديناميت*.

سألني وزير الأوقاف سؤالًا مفاجئًا:

- *هل كنت تعتقدين أن أمير المؤمنين هو الوحيد الذي يصدر الفتاوى؟*.
قاطعته قائلة:
- *نعم وأيضًا لديه سلطات واختصاصات ليست من حق أي أحد*.
ابتسم الرجل قائلًا:
- *المسالة ليست بهذا الشكل العشوائي، أمير المؤمنين يحكم وله سلطة عليا هذا شيء متفق عليه، ولكن تصرفاته وأحكامه مراقبة عبر جيش من العلماء والحكماء المختارين، والذين يعتبرون صفوة المجتمع الطالباني، ولكِ أن تعلمي أن هذا الجيش المفكر لو قال عبارة «لقد ضل أمير المؤمنين سبيل الله» لتغير على الفور أمير المؤمنين، الملا عمر ليس نبيًّا أو ملاكًا إنما بشر، صحيح نحن نحترمه ونقدره ولكن هذا لا يمنع أن له أخطاء ومن حقنا كرعية أن نحاسبه عليها*.
- *وهل هناك أخطاء ارتكبها الملا عمر وحوسب عليها؟*.
- *لا داعي للدخول في تفاصيل أنا في حِلٍّ منها، ولكنه حتى الآن لم يرتكب الخطأ الجسيم الذي يدفع جيش العلماء إلى نزع سلطاته منه*.
- *ألا ترى أن توقيت تدمير التماثيل لم يكن مناسبًا، خاصة أن «حركة طالبان* كانت تتعرض لهجوم وانتقادات شديدة من قبل دول العالم.. ألا ترى أنكم كنتم في حِل من هجوم جديد؟*.
- *العالم لن يرضى عنا في أي وقت والقضية ليست أصنام «بوذا»، ولكنها حجة من أجل أن يوجهوا لنا سهام الانتقاد، والحالة الوحيدة التي نكسب بها رضاء العالم أن نتوافق معهم في الأمور الكافرة، لذلك نحن نعلنها صراحة بأننا لا يهمنا العالم الكافر ولن نتنازل عن مبادئنا، ثم إننا لم نكسر الأصنام في أوروبا أو أمريكا لقد كسرناها في بلادنا ونحن أحرار*.
- *دائمًا ما ترددون أنكم تسيرون على طريق ونهج الصحابة.. كيف؟*.
- *نحن بالفعل نسلك طريق الصحابة، فالإمارة خالصة ولها من صفات الشورى، ولدينا مجموعة من الوزراء يجتمعون مرة كل أسبوع وكل منهم يعطي رأيه في كل وزارة، والشورى لدينا ممثلة في شكل البرلمان، وبهذا استطعنا أن نرد على الألسنة التي تتهمنا بالتمسك بالتخلف والعودة إلى الوراء، لقد جمعنا بين الشكل القديم الممثل في الشورى التي سار عليها الصحابة والبرلمان الذي يسير عليه العالم الآن*.
- *الملا - مولاي - مولانا - موسوي – مولوي، كلها ألقاب سمعتها كثيرًا منذ أول لحظة وصلت فيها إلى الإمارة الإسلامية، ما نقاط الاختلاف بين كل لقب؟*.
- *كلها ألقاب واحدة.. ولكن «مولانا» لقب نمنحه لكل من تخرج في المدرسة الباكستانية، بينما الملا هو الذي كان يقرأ الكتب ويلتهمها التهامًا، وله من الثقافة الدينية مكانة واسعة، ومرتبة الملا أكثر أهمية من كل المراتب أو الألقاب التي تم ذكرها*.

- *فيما يخص تطبيق الشريعة الإسلامة وتحديدًا الحدود والقصاص.. كيف تطبق في الإمارة؟*.
- *إجراء الحدود والقصاص فلسفة عظيمة تصلح من حياتنا، نعم نقيم الحدود ونقطع يد السارق مرة واحدة، وإذا كرر وسرق مرة أخرى نقطع قدمه اليسرى وهكذا، وكنا نقوم بتطبيق الحدود يوميًّا منذ خمس سنوات، ولكن الآن اعتدل المجتمع واتعظ الجميع وأصبحت نسبة السرقة في الإمارة الإسلامية نحو 10 في المئة فقط*.
- *هل هناك وجود لأديان أخرى في أفغانستان؟*.
- *اليهودية، السيخ، المسيحية، الهندوس*.
- *وهل من المعتدل أن تطالبوا المواطنين الذين لا يؤمنون بالإسلام بوضع شارة أو علامة لتميزهم في الشوارع؟*.
- *بداية يجب أن نكون متفقين أن كل أصحاب الديانات الأخرى يعيشون في أمن وسلام في الإمارة الأفغانية، لهم منازلهم ومعابدهم الخاصة التي يؤدون فيها طقوسهم الدينية بحرية تامة، نحن نحافظ على أمر الرسول صلى الله عليه وسلم؛ نحسن إليهم ونعيش معهم ونتعامل معهم في البيع والشراء والشراكات، ولكن نساءهم يلتزمن بالزي الإسلامي للإمارة «الشادوري».. هذا قانون وشريعة الله التي لا تناقش، ونحن بالفعل أصدرنا فتوى تأمر بأن تكون لهم علامة خاصة حتى يعرفهم جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى لا يضربوا الرجال أو يزجوا بهم في السجون إذا لم يكونوا ملتحين، ولهذا السبب وخوفًا من تعرضهم للضرب أو السجن أو الإهانة أصدرنا تلك الفتوى، وفيما عدا ذلك هم أحرار في وطنهم*.
- *فيما يخص المراة الأفغانية وقضايا الزواج والطلاق*.
قاطعني قائلًا:
- *الطلاق لا يحدث كثيرًا في مجتمعنا، فبعيدًا عن الدين فإن عادات المجتمع الأفغاني تعتبر طلاق المرأة عيبًا كبيرًا، لذلك فنسبة الطلاق لا تكاد تصل إلى 1% فقط.. وإن حدث فنحن نضمن للمرأة حقوقها كما ورد في الشريعة الإسلامية*.
- *وماذا عن زواج المتعة؟*.
- *ليس في مذهبنا ما يسمى بزواج المتعة، أهل السنة يفتون بتحريم هذا النوع من الزواج ولكنه موجود عند الشيعة*.
- *بمناسية الحديث عن الشيعة.. ما أوجه الخلاف بينكم وبين إيران؟*.
- *اسألوا أهل السياسة..*.
- *أقصد من سؤالي الاختلافات الدينية..*.
- *الأصول بين السنة والشيعة واحدة، عبادة الله والإيمان بالرسل وسيدنا محمد آخر الأنبياء، كل هذا نعترف به ولا نختلف عليه.. ولكن هناك اختلافات في المسائل الفرعية وليس بالنسبة للقضايا السياسية، وكلها اجتهادات والله

أعلم*.
- *عندما سألت وزير الخارجية السيد وكيل متوكل عن وجود التلفزيون أجابني بأنه لن يكون قريبًا، فهل هذا هو رأيك أيضًا؟*.
- *كل ما أستطيع قوله إنه يمكن أن ندخل التلفزيون بل ونفتح سينما أيضًا، ولكن كله إسلامي، والأمور التجارية تحتاج لاطلاع إعلامي ثم إننا لم نمنع سوى الشرائط الحرام، نحن لسنا ضد الثقافة والإعلام، بالعكس نريد رجلًا وامرأة عالمين بكل شيء. لكنها المشاكل الداخلية التي نعاني منها*.

١٤

التلفزيون شيطان والمعارضة كافرة

لفت نظري، بل أدهشني وجود وزارة للإعلام في إمارة أفغانستان الإسلامية، إذ أين وسائل الإعلام التي يكون لها وزير ومستشار ومتحدث رسمي؟ إذا كان التليفريون حرامًا ولا وجود لشبكة الراديو، والصحف قليلة ومعدودة على الأصابع وذات إمكانات رديئة وضعيفة في آن واحد، فما سبب وجود وزارة للإعلام؟

لذلك أصررت على مقابلة وزير الإعلام الأفغاني، بل وذهبت إلى مكتبه ما يقرب من ٤ مرات حتى استطعت الحصول على موعد معه.

مكتب وزير الإعلام أكثر فخامة من مكتب وزير الخارجية. هذا هو أول انطباع انتابني عندما شاهدت الغرفة الخاصة بالوزير، وحاولت أن أجد مبررًا منطقيًّا فكان الفشل نصيري، ثم لفت نظري لوحة على الحائط فأشرت إليه قائلة:

- *سيادة الوزير، ما هذا؟*.

بدهشة أجابني:

- *شعار حركة *طالبان* المجيدة، ويتلخص معناه في التالي: شعاع من أشعة الشمس، وهذا يعني الضوء الساطع، وخشبة تحمل القرآن الكريم لأنه مصدرنا الذي نحكم به، وترس آلة تعني الصناعة وقوة العمل، أما سنابل القمح فهي ترمز إلى الزراعة والبناء، وبجانب هذا علامة الجيش أما السيفان فهما يرمزان إلى حكم الإسلام بحد السيف*.

- *ألاحظ أن هناك ما يشبه الصاروخ.. بجانبك على المنضدة؟*.

قاطعني قائلًا:

- *هذا دليل على أن القوات السوفيتية الكافرة ما زالت تقوم بتهديد الشعب الأفغاني، وهذا السلاح استطعنا انتزاعه من القوات الموالية لأحمد شاه مسعود منذ يومين فقط*.

- *أريد أن أتعرف على صورة الإعلام الأفغاني عن قرب*.

- *وزارة الثقافة والإعلام مركزها الرئيس كابول العاصمة، ولها فروع في العديد من الولايات الأفغانية، والهدف الخاص من الثقافة والإعلام هو تنوير أذهان الناس وإيصال مطالبهم إلى الجهات المسؤولة*.

- *تتكلم عن التنوير وأنتم تحرمون التلفريون؟*.

- *هذا الجهاز اللعين ما هو إلا رجس من عمل الشيطان، وأعوذ بالله أن نجعل هذا الجهاز يدخل إلى منازلنا ونحن بلد يطبق الشريعة الإسلامية، ولكن هذا لا يمنع أننا لدينا رغبة في جعل التلفزيون إسلاميًّا يتماشى مع قانون الإمارة الأفغانية. وهذا يحتاج إلى إمكانات ومساعدات مادية من قبل الدول الإسلامية، من أجل إعداد برامج وكوادر شابة تعمل في هذا المجال، لذلك نحن لا نتوقع أن يدخل التلفزيون الإسلامي إلى أفغانستان في فترة قريبة*.

- *إذن هل المقصود بالإعلام هو الصحافة؟*.
- *نعم.. الصحافة لدينا هي نواة حقيقية للإعلام، والحقيقة أننا بذلنا مجهودات خارقة في النشاطات الصحفية ولدينا عشرات الجرائد الإسلامية، منها على سبيل المثال *الشريعة*، *الهواة* باللغتين العربية والإنجليزية بالإضافة إلى صحيفة *كابول تايمز**.
- *وهل هناك قوانين خاصة باصدار الصحف؟*.
- *لدينا قوانين مثل الدول الأخرى تمامًا تشرف على إصدار الصحف، والحقيقة أن هناك مواد وأرقامًا كثيرة تحتاج إلى ساعات كثيرة من الوقت لشرحها، ولكن كل ما أستطيع قوله إننا راعينا عند وضع هذه القوانين الوضع في أفغانستان والمحافظة على التقاليد*.
- *وهل هناك جرائد للمعارضة؟*.
- *لا توجد أساسًا معارضة في أفغانستان. الجميع راضٍ ومطيع لحركة طالبان، وأوامرها وشروطها. أما المعارضة فهي كافرة ولأنها مُلحدة موالية لـ«الروس الكفرة»، فقد تم طردهم أشر طردة من البلاد، وهم نازحون الآن في الشمال تحت قيادة *أحمد شاه مسعود*، وفي وقت قريب وعاجل ستسمعون خبر وصول طالبان إلى طرد مسعود أو قتله، كما فعلنا مع الخائن نجيب الله عندما شنقناه في كابول عقب سيطرتنا على الحكم*.

١٥

رسالتي إلى أسامة بن لادن

قبل أن تقرأ، تذكر أن تلك الحكاية واقعية وحقيقية ولكنها حدثت منذ عشرين عامًا، وقبل تفجيرات ١١ سبتمبر بأربعة أشهر.

منذ اللحظة الأولى التي قررت فيها السفر إلى أفغانستان، وحلم الجلوس مع تلك الشخصية يداعبني، بل يحاصرني، أكذب لو قلت إنها المرة الأولى التي فكرت فيها في هذا الأمر. أو قلت لنفسي بما أنني حصلت على موافقة السفر إلى أفغانستان إذن عليّ محاولة لقاء أسامة بن لادن.

وهذا ليس صحيحًا بالمرة.. لقد حاصرني هذا الرجل الذي يعيش حياة الأساطير منذ سنوات طويلة، أهتم بكل تفصيلة من تفاصيل حياته التي قد تنشر عبر قصاصة من الورق، أو أحتفظ بصورة من صوره القليلة التي قد تنشر في إحدى المجلات الأجنبية أو الجرائد العربية، وكان بالتأكيد أحد الأسباب المباشرة التي جعلتني أفكر أساسًا في خوض مغامرة الدخول إلى أفغانستان.. وكان حلمًا مني أن أقابله وأجلس معه وسط الجبال، تحاصرنا عيونه التي تحمل أسلحة من كل نوع ولون، والحق لم يكن حلمًا لتحقيق شهرة أو نجومية أو خبطة صحفية لا مثيل لها، بقدر ما كان فضولًا ورغبة جارفة في الاقتراب من تلك التركيبة التي تركت كل ما لذ وطاب من الحياة، واختارت العيش مطاردة مهددة من قبل العالم كله وعلى رأسه القوة العظمى أمريكا.

لذلك كنت طوال الرحلة أتحسس رائحته وأشم أخباره من بعيد، إلى أن كانت جلستنا مع وزير الخارجية وكيل أحمد متوكل، الذي يعد صديق أسامة بن لادن الصدوق، وجاء طلبي مباشرًا دون أي *لف أو دوران*

أريد مقابلة الشيخ أسامة بن لادن؟

ابتسم الرجل وأجابني:

- *لو كنت في أفغانستان منذ 3 أشهر كنت استطعت مقابلته، لكننا الآن قد سحبنا منه حق الأحاديث مع أي إعلام عربي أو أجنبي*.

حاولت أن أفهم السبب ولكني استنتجت أنهم قد فعلوا هذا الأمر رغبة منهم في تهدئة الجو مع دول العالم. ويبدو أن *الشيخ أسامة* عندما ينوي الكلام، يتحول على لسانه إلى قذائف صاروخية، وهم الآن -وأقصد رجال حركة *طالبان* وقتها- ليسوا على استعداد لمواجهة هجوم وانتقاد خصوصًا بعد تذمر العالم إثر تدمير تماثيل بوذا.

وهذا يعني أن حلم مقابلة هذا الرجل يعد من المستحيلات، فما كان مني إلا أن فتحت حقيبة يدي وأخرجت مجموعة من الأوراق كنت قد سهرت الليلة السابقة في إعدادها، وقدمتها لوزير الخارجية الذي تساءل بعينيه عما تحويه.

فقلت:

- *رسالة مكتوبة للشيخ أسامة بن لادن، وتتضمن العديد من الأسئلة وفي نهايتها رقم تليفوني والفاكس، أعتقد أنه أضعف الإيمان أن تصل إليه رسالة من صحفية عربية، قد يكون أمرًا ليس مستحيلًا*.
- *وليس صعبًا.. أعدك بأن تصل إليه رسالتك في أقرب وقت ممكن*.
رد وزير الخارجية أثلج صدري وأحسست معه بنوع لا بأس به من التفاؤل.
إذن عليَّ طوال إقامتي في أفغانستان أن أتحسس أخباره من بعيد، انتظارًا لأمل مجهول يتمثل في أي نوع من أنواع الرد على رسالتي.
لا شك أن بن لادن، اختلفنا معه أو اتفقنا، لقبناه بالإرهابي أو المجاهد..
شخصية جديرة بالتأمل.. وحتمًا تلفت النظر وتستدعي الوقوف عندها طويلًا، وإذا حاولنا أن نستعرض محطات حياته أعتقد أنك ستتفق معي.
أسامة بن محمد بن لادن ولد عام ١٩٥٧ في مدينة الرياض. والده كان مقاولًا صغيرًا، وكان أسامة واحدًا من الأبناء الخمسين الذين أنجبهم والده من عدد لا بأس به من الزوجات. اغتنى الوالد وأصبح ذا ثروة ثقيلة مع طفرة الإنشاءات في السعودية، وسرعان ما امتدت صِلاته الوثيقة إلى العديد من الشخصيات المهمة بالمملكة إلى أن حقق مكانة متميزة، خصوصًا عندما أسند إليه القيام بتنفيذ التوسعات الهائلة في المسجد الحرام بمكة المكرمة ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة. وفي ذلك الوقت التحق أسامة بالمدرسة القانونية في جدة، ثم درس بعدها الإدارة والاقتصاد في جامعة الملك عبد العزيز في جدة، وأشرف على إمبراطورية الوالد التي تتوسع كالأخطبوط يومًا بعد يوم.
وهنا ننتقل لمحطة أخرى مفصلية في حياة الشيخ أسامة، وقد لا يعرف الكثيرون أن بن لادن كان يتردد لفترات طويلة في حياته على بيروت، لقضاء أيام مرحة بعيدة عن التقاليد الصارمة في المملكة، بل كان من رواد البارات وكازينوهات القمار.
وكان للحرب الأهلية في لبنان عام ١٩٧٠ دور كبير في عدم تردد أسامة على بيروت، واقتنع تمامًا بما يتردد على لسان الإسلاميين وقتها؛ بأن الحرب وكوارثها بمثابة عقاب أنزله الله سبحانه وتعالى بلبنان وأهله بسبب *الآثام المدمرة* التي جروا إليها شباب المسلمين.
وفي يناير عام ١٩٨٠ استقل أسامة بن لادن الطائرة راحلًا تاركًا ماضيه الليلي متوجها إلى باكستان، بعد قيام القوات السوفيتية بغزو أفغانستان. وجاءت زيارته تلبية لنداء دولي لمساعدة الشعب الأفغاني، وتلك هي المحطة التي قلبت حياته رأسًا على عقب وبدا وكأنه بطل العالم الإسلامي المنتظر، وقد أدارت أمريكا ظهرها إزاء التصرفات التي يقوم بها بن لادن، لعدم إدراكها الكامل أن هذا الوهج الثوري المتأجج الذي فجره سوف يوجه يومًا ما نحو واشنطن، وهنا أسمح لنفسي بالتفكير بصوت عالٍ وعلى الورق.
تركت أمريكا أسامة بن لادن يفعل ما يشاء، ويمول من أي جهة بل إنها كانت

تقدم له يد العون والمساعدة. وإذا كانت «حركة طالبان» التي تحكم أفغانستان مهددة من قبل أمريكا، فإن طالبان وأسامة بن لادن من صنع الولايات المتحدة التي استخدمتهما لضرب الغزو السوفيتي لأفغانستان.
والموقف انقلب تمامًا بعد أن حققت أمريكا غرضها، وطردت القوات الروسية بمساعدة أسامة بن لادن والمجاهدين الأفغان الذين أصبحوا من زعماء حركة *طالبان*، وتحولت أمريكا من المؤيد إلى المعارض ومن الممول إلى المحاصر، وأصبح أسامة بن لادن على رأس قائمة الإرهابيين المطلوبين، بل ورصدت واشنطن مكافأة تبلغ ٥ ملايين دولار لمن يدل على مكانه. لا أعرف لماذا أثارت *دوخة* أمريكا على بن لادن لاحقًا حيرتي وضحكي بل وسخريتي في أحيان كثيرة، فهل صحيح أن أمريكا بكامل أجهزة مخابراتها التي تستطيع أن تعرف تفاصيل الملابس الداخلية لأي شخصية، هل صحيح أن هذا الجبروت لا يستطيع تحديد مكان أسامة بن لادن، في أفغانستان؟ هل فشلت حقًّا المخابرات الأمريكية في القبض على «بن لادن» أم أن مصالحها لم تنته بعد؟
كثيرًا ما دخلت في مناقشات مع العديد من الناس حول ظاهرة *أسامة بن لادن* وكثيرًا ما يأتيني الرد مباشرًا.. «أمريكا لو عاوزة تقبض على أسامة بن لادن هتقبض عليه». كله تمثيليات في تمثيليات.. والمسألة مسألة مصالح مش أكثر!
غريب.. هذا الرجل، يعيش، كما يقولون في آخر بلاد المسلمين، ويدير أكبر العمليات الإرهابية في العالم. ولديه علاقات وطيدة مع الإسلاميين الأصوليين البارزين مثل الشيخ عمر عبد الرحمن والشيخ عبد الله عزام، الذي لقي مصرعه في باكستان.
يجلس مختبئًا خلف صخور الجبال ويحرك يديه التي تمتد كالأخطبوط في كل مكان، ومن ضمن الأعمال التي اتهم بها الشيخ أسامة، تفجير أبراج الخبر بمدينة الظهران بالسعودية عام ١٩٩٧، وتفجير سفارتي الولايات المتحدة في كينيا وتنزانيا عام ١٩٩٨، والهجوم على الجنود الأمريكيين في اليمن والصومال خلال مشاركتهم في قوات حفظ السلام الدولية عام ١٩٩٣.
بأثر رجعي أستعيد الآن تعجبي من هذا الرجل الذي يضرب، وقتها، ضربته التي تجعل أمريكا *تلف حول نفسها* ويختفي.
و*الله راجل جدع..*. عبارة ترددت على ألسنة كثيرين في الأسابيع الماضية، عندما دب الفزع والهلع والرعب في قلوب الأمريكيين بعد تهديدات، مجرد تهديدات، بشن هجوم غامض لأعوان المليونير المتطرف أسامة بن لادن، وقد أكدت ذلك المخابرات الأمريكية فما كان من أمريكا إلا أن وقفت على قدم وساق ليهتز عرشها، فصدرت الأوامر للسفن الحربية في البحرين مقر الأسطول الخامس الأمريكي، بالنزول إلى البحر والابتعاد عن السواحل، وأعلن مسؤولو البيت الأبيض إغلاق السفارتين الأمريكيتين في البحرين

والعاصمة السنغالية داكار، بصورة مؤقتة. الأهم من ذلك هو ما أمر به الرئيس الأمريكي بوش الذي طلب من الكونجرس اعتماد مبلغ 22 مليار دولار، لميزانية الدفاع للسنة المالية 2002 بزيادة قدرها 33 مليار دولار عن الميزانية الحالية، هذا عن بوش، فماذا عن الدموي «شارون»؟

شارون يعيش في رعب هذه الأيام، فالتهديدات وصلت أيضًا إلى إسرائيل التي تعيش في حالة من التأهب والقلق، تحسبًا لهجمة من بن لادن.

ألم أقل: والله جدع يا بن لادن، يكفيك شرفًا حالة الفزع والقلق التي دبت في قلوب الأمريكان والإسرائيليين الذين اعتقدوا زورًا أن *مالهمش كبير*.

١٦

وضاع الحلم

أعود إلى الحلم بلقاء الشخصية الغامضة.. *نفسي أشوف صورة حديثة لأسامة بن لادن ويا ترى شكله بقى عامل إزاي؟ زاد وزنه أم نقص؟ لو يعطيني أحد فرصة لقاء صديق له يحدثني عنه، يا سلام لو رده على رسالتي وصل ونحن في أفغانستان، وأرسل لنا سيارة واصطحبنا البودي جارد إلى مكانه، ما لها الأحلام تكاد أن تأكل رأسي*.

مع بعض المثابرة التقيت برجل لن أفصح عن اسمه، رأى أسامة بن لادن وجلس معه ثلاثة أيام، والأهم لديه جهاز تلفزيون و*ستاليت*، بل وفيديو طبعًا في السر.

تحدث معي قليلًا عن تركيبة بن لادن وبعض صفاته الشخصية.. مبدئيًّا لن أفصح عن السبب الذي دعا إليه الرجل لمقابلة بن لادن.. ولكن ملامح وجهه وهو يتكلم عن *الشيخ أسامة* جعلت لدي رغبة مجنونة في لقاء الرجل.

أسامة بن لادن يدخل القلب منذ أول لحظة تقع عيناك عليه. هكذا بدأ المجهول حديثه قائلًا: *كان من المفترض أن أجلس معه ثلاث ساعات، وجدت نفسي أخرج من عنده بعد ٣ أيام لم أشعر بأي ملل أو زهق، الشيخ أسامة لديه القدرة على الحديث والكلام لأيام متواصلة دون أي تعب، بالإضافة إلى أنه في منتهى الكرم ولديه استعداد لتقديم أي مساعدة لأي أحد يطلب منه أي شيء يخطر ببالك*.

- *وماذا عما يتردد بأن أسامة يعاني من فشل كلوي؟*.

- *غير صحيح على الإطلاق.. الرجل عانى فعلًا من التهاب شديد في الكلى نتيجة جلساته التي تطول بالأيام، ولأنه دائمًا ما يؤجل ذهابه للمرحاض فترة طويلة فحدث له شبه احتباس في البول، نتيجة لالتهاب في الكلى، وأيضًا كان يعاني من مشاكل في الكبد ولكن أطباءه المتخصصين استطاعوا أن يخففوا آلامه*.

- *وهل صحيح أن هناك علاقة مصاهرة قد تمت بينه وبين «الملا عمر» أمير المؤمنين في إمارة أفغانستان؟*.

- *لقد سألته في هذا الأمر، حيث كانت هناك شائعات كثيرة تقول إن الشيخ أسامة قد زوج ابنته الكبرى إلى الملا عمر، أمير الإمارة الأفغانية.

وعندما واجهته بهذا الأمر قال لي لم يحدث على الإطلاق، تلك شائعة، ومن المستحيل أن أوافق على هذه الزيجة، لأنهم ببساطة سيقولون إن أسامة بن لادن قد باع ابنته لأمير المؤمنين في مقابل حمايته ولجوئه إلى أفغانستان*.

- *ألا تستطيع أن تصف لي شكله؟*.

فاجأني الرجل عندما قال لي إنه سيجعلني أرى أسامة بن لادن أمام عيني، هب واقفًا ثم غاب لمدة ٣ دقائق. عشت فيها على حلم أنه سيدخل ويده في

يد الشيخ أسامة، إلا أنه قد دخل وفي يديه شريط فيديو أدرجه في الجهاز فإذا بأسامة بن لادن يتوسط الشاشة وسط مجموعة من الأطفال تتراوح أعمارهم ما بين ١٠ و٩ سنوات.
قال الرجل: *هذا الشريط قد صورته له منذ شهر واحد..*.
لم أسمع كلام هذا المجهول ولا أعرف ماذا كان يقول. كان تركيزي كله في ملامح أسامة بن لادن التي ظهر عليها الإعياء الشديد. فقد الرجل كثيرًا من وزنه ويغلب على ذقنه اللون الأبيض، والسواد تحت عينيه حفائر.
صوته هادئ جدًّا، ويتكلم بالطبع اللغة العربية الفصحى بطلاقة شديدة.. أخذ يتكلم ويشرح للأطفال مسار القضية الفلسطينية منذ وعد بلفور وحتى الآن، كم البساطة والتلقائية جعل كل طفل مشدودًا لكل كلمة يقولها، رغم أنني لم أسمعه يومًا يتكلم ولم أعرف *تون* صوته، فإنني أحسست بأن الرجل أصبح مهدودًا.
وهذا طبيعي رحلة حافلة بالهروب وسط جبال، وجو قاسٍ وعيشة بسيطة متقشفة.. وسهر ليل نهار وأعتقد أنه ينام نوم القط *نصفً تغميضة*.. طبيعي جدًّا أن تخور قواه.
قطع تأملي صوت المجهول مشيرًا بإصبعه إلى طفلين جالسين بجانب الشيخ أسامة؛ هذا حمزة وهذا لادن، آخر عنقود أسامة من بين ١٣ طفلًا.
انتهى الشريط بسرعة وأغلقنا الجهاز وغادرنا المكان، فقد كان الوقت اقترب من موعد حظر التجوال وعلينا الذهاب سريعًا إلى الفندق.
في الصباح الباكر فوجئت باستدعاء خاص من وزارة الخارجية لمقابلة الوزير وكيل أحمد متوكل، كاد قلبي أن ينخلع فقد كان لدي إحساس ما بأن هذا الاستدعاء يخص أسامة بن لادن، إذ ما الذي يدفع وزير الخارجية إلى لقائنا مرة ثانية بعد أن انتهينا من لقائه وعمل حوار معه.
معقولة هيبلغني بموافقة أسامة بن لادن على المقابلة وتحديد الموعد.. أم أنه سيصحبني مباشرة إلى هناك.. الأحلام كثيرة والأفكار تكاد أن تلتهمني طوال الطريق إلى مكتب السيد وكيل متوكل.
المقابلة لم تستمر سوى عشر دقائق، تحدث فيها الوزير قائلًا:
- *لقد وصلت رسالتك إلى الشيخ أسامة بن لادن، وقد تعجب كثيرًا عندما عرف أن صحفية عربية قد حضرت إلى أفغانستان، في ظل كل ما تنشره وسائل الإعلام الغربية من افتراءات حول القتل والخطف والاغتصاب، ويعدك بأنه إذا أعطاه مسؤولو حركة طالبان حق الحديث مع الصحافة، ستكونين أول صحفية يجري معها جلسة مطولة خاصة، وأن أسئلتك تحتاج إلى أيام كثيرة وليس لساعات للإجابة عليها*.
وفي النهاية أبلغني: إنه يحملك رسالة تنقل حبه وتقديره لشعب مصر والشعوب العربية كاملة.
- *وكيف ستكون وسيلة الاتصال؟*.

- *لقد كتبت له في الرسالة أرقام تليفوناتك، ثم إن الشيخ أسامة له الطرق الخاصة للاتصال بالذين يريدهم*.
انتهت المقابلة وتجدد الحلم مرة أخرى، وإن كان لم يعد حلمًا بل نصف حلم، ما زلت أنظر في شاشة تليفوني المحمول يوميًّا بشغف، وما زلت أنتظر رنينه.. أعيش في حالة من حالات انتظار مقابلة هذا الرجل فهل يرن الهاتف يومًا؟ أم أظنه حلمًا من أحلامي المستحيلة؟
بات كل ما حولي مستحيلًا فلقد أتت الرياح بما لا تشتهي سفني، انهار الحلم بلقاء الرجل ما إن استقبلت خبر هجمات ١١ سبتمبر التي وقعت في أمريكا، لم أنتظر كثيرًا من أجل سماع ما توقعته، والخاص باتهام أمريكا لتنظيم القاعدة الذي يرأسه أسامة بن لادن بالمسؤولية عن التفجير، وفي لمح البصر كانت الطائرات الأمريكية تقصف، بل تدك العاصمة الأفغانية كابول، بهدف القضاء على الإرهاب والقبض على بن لادن وإسقاط حركة طالبان.
انتهى الحلم ولن يرن هاتفي حاملًا لي موعدًا مع الرجل، ولكن عليّ نيل إذن بتكرار المغامرة التي أصبحت معروفة لي تمامًا، لقد نجحت في فك طلاسم *طالبان* في رحلتي الأولى، لم أجد صعوبة في انتزاع موافقة الأستاذ الكاتب الصحفي الراحل إبراهيم نافع الذي كان يرأس إدارة وتحرير جريدة *الأهرام* وقتها، ولم تناقشني أمي وأستاذتي سناء البيسي في قراري بالسفر ثانية، بل على العكس شجعتني وقالت بالحرف: *ستكونين المراسلة العسكرية لـ*الأهرام* في حرب أمريكا على أفغانستان*.
وقد كان وارتحلت مع زميلي المصور مرة أخرى إلى بلاد الدبابات والمخدرات، ولكن هذه المرة لتغطية معركة العدالة المطلقة لأمريكا على أرضها.

١٧

النهاية.. بداية

لن نقول: دخلنا أفغانستان بل خرجنا من أفغانستان.

هربنا مثلما هربت فلول حركة *طالبان* من قوات التحالف الشمالي، التي اقتحمت العاصمة الأفغانية كابول بعد خروجنا منها بساعة واحدة، كتبت لنا النجاة من الموت والعودة إلى الحياة مرة أخرى، لنحقق أعجوبة ترقى إلى أن تكون ثامن أعجوبة بعد سبع أعاجيب تحملها الدنيا على عاتقها.

أسبوع وسط أهوال معركة العدالة المطلقة، التي عدل الرئيس الأمريكي بوش، اسمها إلى الحرية الراسخة.

في كابول، العاصمة الأفغانية، لا شيء حولنا سوى صوت القنابل مدويًا، الدخان يعبئ السماء، صراخ الأطفال، عويل النساء، نحيب الشيوخ، لا شيء تراه أعيننا سوى اللون الأحمر الذي تحول إلى ماكينة لري أرض صخرية لا تكف عن طلب المزيد!

أسبوع كامل وسط أهوال الحرب التي تفوق أي كلام، فقط تسكت الألسنة وتنكس الرؤوس.. مأساة دفعت أقدامنا إلى قلب الأحداث لنرصد وننقل عن قرب تفاصيل واقع دموي مرير.

البداية هنا من.. النهاية.

قلق ورعب بعد سقوط مدينة *مزار الشريف* أهم وأقوى المدن الأفغانية في قبضة قوات التحالف الشمالي، القنابل والصواريخ الأمريكية تدك بعنف وبلا هوادة أرجاء العاصمة كابول، وزارة الخارجية خاوية من أي مسؤول يمت بصلة إلى حركة طالبان، المتحدث الرسمي بوزارة الإعلام يستعد للهرب مع أسرته إلى الحدود، الفوضى تسود أرجاء العاصمة الأفغانية. كابول تحولت شوارعها إلى دبابات، سيارات مدججة بالأسلحة، وميلشيات مسلحة من رجال غير معروفة هويتهم تهدد كل من يقع في طريقها بالسلاح.

فريق تلفزيون أبو ظبي يغادر الفندق لقضاء ليلته في مكان آمن، استعدادًا للرحيل. صوت تيسير علوني مراسل قناة الجزيرة وقتها يحذرنا من البقاء في كابول ساعة واحدة، حظر التجول في الشوارع من السابعة مساء بدلًا من العاشرة، زجاج غرفتي في الفندق يتهشم ليلًا من جراء صاروخ أمريكي دك قرية *خاطر* التي تبعد ١٠٠ متر عن الفندق الذي كنا نقيم فيه.

السابعة صباحًا ننطلق بالسيارة في طريقنا إلى الحدود الباكستانية، نسمع نبأ أكيدًا عن دخول قوات التحالف الشمالي إلى العاصمة كابول لتعلن نهاية حركة *طالبان*.

هكذا غادرنا الأراضي الأفغانية وسط حالة من الرعب والقلق والتوجس، عشر ساعات من العاصمة «كابول» إلى الحدود الباكستانية، عشر ساعات متواصلة والطائرت الأمريكية تحلق فوقنا، عشنا في حالة انتظار قنبلة أو

صاروخ يجعل أجسادنا أشلاء، وللحق لا أعرف حتى هذه اللحظة لماذا لم نُقصف طوال هذا الطريق الوعر، خصوصًا أن الطريق الذي سلكناه مستهدف من قبل أمريكا، بل إنهم كانوا قد قصفوا ما يقرب من ٨ سيارات تحمل مدنيين أفغانًا في طريقهم للفرار إلى باكستان قبل سفرنا بيوم واحد! وحده سبحانه وتعالى الذي أنقذ أرواحنا وجعلنا نعود إلى أرض الوطن سالمين.
قد يتعجب البعض أنني بدأت رحلتنا إلى أفغانستان من نهايتها، ولم أسرد ما لدي من أحداث ومعلومات من البداية، ولكن كما يقولون إذا عرف السبب بطل العجب. لقد أصبحت، شئتُ أم أبيت، شاهد عيان على انتهاء مرحلة في غاية الأهمية من تاريخ هذا البلد، وبالتأكيد لدي ما أقدمه عن بداية تلك المرحلة التي قد تغير موازين كثيرة، بالإضافة إلى أن دخول قوات التحالف الشمالي قد ساهم بشكل كبير في إجهاض جزء لا بأس به من مهمتي الصحفية التي حلمت بها وخططت لها داخل الأراضي الأفغانية، فلم يكن الأمر سيقتصر على كابول العاصمة فقط.
بل إنني خططت مع زميلي المصور أننا سنقوم بزيارة مدينة قندهار معقل حركة *طالبان*؛ لأن فرصة لقاء *الملا عمر أمير المؤمنين* ستكون واسعة، بالإضافة الى زيارات مختلفة لأغلب مدن أفغانستان *مزار شريف* و*هيرات* و*كويتا* الواقعة على الحدود مع باكستان، والتي تمثل نقطة غليان حقيقية في الأراضي الباكستانية، انقلبت خططنا تمامًا ما إن سقطت مزار الشريف في أيدي قوات التحالف، وبدا الأمر صعبًا وخطيرًا فيما يتعلق بكل الصحفيين العرب الموجودين على أرض العاصمة كابول. ولعل الخطورة تكمن في أن قوات التحالف الشمالي، تحمل ضغينة تصل إلى حد الكراهية والرغبة في الانتقام من أي عربي خصوصًا الصحفيين؛ لأن مقتل أحمد شاه مسعود زعيم قوات التحالف الشمالي كان على يد صحفيين عربيين دخلا إليه بحجة إجراء حوار صحفي معه، وافق الرجل ففقد حياته بعد أن اغتالاه.
وقال لنا *تيسير علوني* مراسل قناة الجزيرة في «كابول»، والذي كان يتردد علينا في فندق *الإنتركونتيننتال* إن أول تصرف ستقوم به قوات التحالف الشمالي فور دخولها إلى أرض العاصمة؛ هو إبادة كل العرب الموجودين على أرض العاصمة.
كانت آخر كلماته لنا: *لازم تغادروا الآن وليس بعد دقائق، أنا أول المستهدفين من قبل أمريكا وقوات التحالف لأنهم يعتبرونني مواليًا لحركة *طالبان* لذلك سأغادر أفغانستان وأعود إلى زوجتي في إسبانيا*.
إذن كان علينا الهرب والتحرك على الفور، لنقول إننا دخلنا أفغانستان في الوقت المناسب وتركناها أيضًا في الوقت المناسب.
أمريكا تقصف الخطوط الأمامية لقوات حركة *طالبان*.. وتتقدم قوات التحالف المعتمدة على تأمين أمريكا لها، فتخسر *طالبان* وتفوز قوات التحالف الشمالي.

هكذا وبمساعدة أمريكا للتحالف.. سقطت *مزار شريف* و*كابول*. وبدت الأمور سهلة ورفعت *طالبان* الراية البيضاء مستسلمة دون مقاومة لتعلن سقوطها! ولكن هل صحيح انتهت الحركة.. بهذه السهولة؟! أم أنها خدعة أو مناورة ليعيد رجال الحركة ترتيب أوراقهم وخطوطهم الدفاعية والهجومية من جديد؟

وبعيدًا عن طالبان، وأسامة بن لادن والظواهري، والتحالف الشمالي.. بعيدًا عن كل هذه الفصائل المتناحرة.. ماذا يريد الشعب الأفغاني الذي تسيل دماؤه يومًا بعد يوم؟

حرصت تمامًا أثناء وجودي في أفغانستان على أن أحاول الإجابة عن هذه التساؤلات، خصوصًا أن انتصار قوات التحالف الشمالي ودخولها إلى مزار الشريف، وكابول، كانا أمرين متوقعين، بل الغريب في الأمر أنني كنت على علم مسبق بأن شريطًا في طريقه لقناة الجزيرة يحمل صورة وصوت أيمن الظواهري، فقد قال لي مصدر مسؤول إنه في حالة سقوط *طالبان* ودخول قوات التحالف الشمالي إلى كابول، سيظهر الظواهري بديلًا عن بن لادن، والملا محمد عمر ليخاطب العالم كله مهددًا أمريكا بأنها لن تعيش في أمان. عندما سألته: *ألا يرى أنها ثقة زائدة وتحدٍّ ليس له أي مبرر وصيغة خطابية مستفزة في حالة سقوط *طالبان*..*. أجابني:

- *إن *طالبان* ليست بالسهولة التي يتصورها البعض. صحيح أن احتمالية سقوطها واردة بنسبة عالية جدًّا، إلا أن هذا الانسحاب سيكون تكتيكيًّا ومرسومًا ومخططًا له، وأنهم لن يتركوا الساحة أبدًا للتحالف الشمالي، إنما هي مناورة لسحب قوات التحالف إلى الجنوب، وهدنة مؤقتة من القصف الأمريكي الذي لم ينل من قوات الحركة بقدر ما نال من أرواح المدنيين الذين ليس لهم أي ذنب، بالعكس أرى أن انسحاب طالبان مناسب جدًّا وقرار صحيح لحماية صفوفهم ومقاتليهم وحقنًا لدماء المواطنين.

وأن ظهور أيمن الظواهري في هذه الحالة لن يكون مستفزًّا أو متحديًا، بقدر ما هو رسالة توجهها الحركة لتعلن أنها ليست النهاية، ثم إن الشعب الأفغاني لا يفضل قوات التحالف بل يكن لهم الكراهية لدمويتهم وعنفهم الشديد، وهذا لا يمنع أن هناك مواطنين موالين للتحالف في «كابول» وينتظرون بفارغ الصبر دخول قوات التحالف لكنهم أقلية لا تذكر*.

لم أصدق كلام الرجل أو بالأحرى لم آخذه شيئًا مسلمًا به، بل كان عليّ أن أتحقق منه خصوصًا فيما يتعلق برغبة الشعب الأفغاني التي فسرها بأنها ضد قوات التحالف.

١٨

حوارت مع هياكل عظمية

ما أصعب التجول في شوارع العاصمة «كابول» في ظل هذه الظروف، وما أقسى جماعات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي ما زالت رغم الحرب الطاحنة التي يتعرض لها الشعب الأفغاني، تدور بسيارتها السوداء المقبضة في شوارع «كابول» لتضبط سيدة ترفع «الشادوري» من فوق عينيها، أو محلًّا مفتوحًا أثناء الصلاة.

المهمة صعبة، ولكنها ليست مستحيلة عليّ بالوصول إلى نبض الشارع الأفغاني، وهذا لن يتحقق إلا بنزولي إلى المواطنين في الشوارع.

البداية عند عامل الاستقبال في الفندق، شاب عمره لا يتجاوز الثلاثين سألته:

- *يقولون إن حركة *طالبان* في طريقها إلى السقوط، وإن قوات التحالف في الطريق إلى *كابول*..*.

دون أن أكمل سؤالي أجابني قائلًا:

- *سمعت تلك الأخبار اليوم، وقررت أن أغادر كابول أنا وأسرتي الصغيرة زوجتي وطفلتي؛ لأن قوات التحالف تاريخها أسود مع الشعب الأفغاني، إنهم يقتلون كل من يتعرض إليهم، في التسعينيات دخلوا إلى كابول وقتلوا خمسين ألف شخص في يوم واحد، وبصراحة كنت أنوي ترك أفغانستان وأهرب مع أسرتي إلى باكستان، خصوصًا بعد الضرب الأمريكي المتواصل*.

- *ولماذا لم تتركها إذن؟*.

- *نقلت زوجتي وطفلتي إلى مدينة جلال آباد وهي بعيدة إلى حد كبير عن القصف الأمريكي، وأقضي أيامي في هذا الفندق في أمان تام لأنه من المستحيل أن يتعرض للقصف؛ فـ*البنتاجون* الأمريكي يعرف أن مراسلي قنواتهم والقنوات الأجنبية يقيمون فيه، وهذا ما تأكدت منه عندما قال لي مراسل قناة *بي بي سي* إنهم يعملون ويؤدون خدمتهم الإعلامية تحت حماية *البنتاجون*، وأن أمريكا تكتفي بقصف الأماكن القريبة من الفندق دون التعرض إليهم. لذلك فأنا أعيش في مأمن هنا لكن إذا دخلت قوات التحالف الشمالي لن أجلس دقيقة واحدة في أفغانستان؛ لأنهم دمويون وسيقومون بمعاقبة كل الأفغان باعتبارهم منتمين إلى حركة *طالبان**.

كلمات عامل الفندق ظلت تلاحقني طوال الطريق إلى شارع الزهور، في العاصمة كابول وهو أكبر شارع تتجمع فيه المحلات التجارية التي تنطق سلعها بأكملها باسم باكستان، فهي المورد الأول والأساسي لكل الأسواق الأفغانية.

عبد الرحمن صاحب محل لزينة الأفراح، يرى أنه بدخول قوات التحالف الشمالي ستعود أفغانستان عشرين عامًا إلى الوراء، ستتكرر الحرب الأهلية الطاحنة مرة أخرى بين الفصائل الأفغانية، فرباني -والكلام على لسان عبد

الرحمن- يريد أن يكون رئيسًا للجمهورية، وحكمتيار يريد أيضًا أن يكون رئيسًا، ودوستم يرغب في أن يكون وزيرًا للدفاع، ومجددي يريد أن يكون وزيرًا للدفاع، ووسط كل هذه الرغبات الذاتية ستهدر دماء الشعب الأفغاني الذي يتجرع مرارة وذل الحروب، فكرت كثيرًا في أن أترك موطني، ولكن في النهاية أين أذهب بأسرتي؟ مصيري سيكون لاجئًا أفغانيًّا على أرض باكستان، التي تعاملنا مثل الحيوانات تمامًا، لذلك أفضل أن أموت في بلدي على أن أعيش حيوانًا في حظيرة باكستانية.
كهل وقف يرقبني من بعيد، لاحظت اقترابه مني أثناء حديثي مع عبد الرحمن ثم تبادلا الحديث بلغة *البشتو*. ترجم كلامه لي عبد الرحمن قائلًا: إنه لا يريد حركة طالبان ولا قوات التحالف الشمالي، ولا تفرق معه حكومة الملك ظاهر شاه فقط، هو يريد أن يأكل لقمة العيش، ويقول إن مواد الإغاثة التي يقومون بتوزيعها لا تكفي والشتاء قارس، وإن كتب له الموت فهو لن يموت من الحرب وإنما سيموت من الجوع.
ضاقت الدائرة من حولي، عيون كثيرة جائعة ووجوه صفراء، وأقدام حافية، وأصوات متداخلة تتكلم *البشتو* ولم أفهم ولكن كان من السهل أن أشعر بمطالب هؤلاء المطحونين من أبناء الشعب الأفغاني.
المسألة ليست في *طالبان*، أو قوات التحالف، المسألة بعيدة عن أسامة بن لادن، والظواهري وأمريكا والسياسة والمصالح والأغراض الدنيئة اللاآدمية. المسألة تتلخص ببساطة في حالة الجوع والحرمان والبؤس التي يتعرض لها الأفغان، مع حلول شتاء قارس لا رحمة له، وقصف متواصل يحصد أرواح المئات يوميًّا.
لا أريد «طالبان»، لا أريد « التحالف»، أريد لقمة العيش، هكذا صرخ الكهل.
لم أتبادل الحديث مع الهياكل العظمية التي تلتف حولي، نظراتهم كانت كفيلة بمعرفة ما يدور في أذهانهم، ولا أعرف لماذا تسمرت قدماي دون حركة إلى أن أفقت على صوت *كلاكس* سيارة سوداء مقبضة، نجحت في أن تفض تلك الدائرة بلا مبالغة وكما يقولون في مصر: *الكل أخذ ذيله في أسنانه وجري*.
وقفت وحيدة مع زميلي المصور، فإذا برجل ذي لحية سوداء وعمامة ينزل من السيارة ويقترب مني.
قلت لنفسي: *ربنا يعديها على خير*، تلك السيارة ليست غريبة عني وتلك الملامح أعرفها جيدًا، رأيتها وانكويت بنارها منذ ٦ أشهر أثناء رحلتي الأولى إلى أفغانستان، إنهم رجال جماعات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المتشددة أفكارهم، والذين يطبقون مبادئ الدين الإسلامي الحنيف بالعصا والنار.
اقترب الرجل وفاجأني عندما تكلم باللغة العربية وباللهجة المصرية أيضًا، فأدركت أنني أمام مصري هارب من الحكومة المصرية لارتكابه أي فعل أو

جريمة إرهابية، المهم دار بينا حوار سأنقله لكم بالحرف بدءًا من سؤاله لي:
- *لماذا أنتما هنا؟*.
-قلت: *نحن صحفيان من القاهرة، جئنا لنرى ممارسات أمريكا مع الشعب الأفغاني المسلم*.
- *هذا ليس الشعب الأفغاني، هنا منطقة تجارية، لماذا لا تذهبان إلى الجبهة لتريا ماذا تفعل أمريكا بنا وبالمسلمين جميعًا؟*.
- *صحيح أن تلك المنطقة تجارية كما تقول، ولكن هذا لا يمنع أن كل المواطنين الأفغان على هذه الأرض يعانون من قريب أو من بعيد من القصف الأمريكي العنيف، ولا يشترط أن يمسك كل مواطن سلاحًا لكي يكون متضررًا*.
خرج الرجل عن الموضوع تمامًا وفاجأني بقوله: *أنت مسلمة ولا ترتدين الزي الإسلامي أين الحجاب، غطي وجهك يا امرأة، ثم ما الذي جعلك تقفين وسط الرجال بهذا الشكل الملعون، لعنك الله*.
قالها الرجل وهو يبتعد عني ويركب سيارته دون أن ينتظر مني أي رد، والحق حمدت الله أنه اختفى من أمامي، وإلا كنت قد دخلت معه في مناقشة بالتأكيد كانت ستودي بنا أنا وزميلي المصور إلى سجون جماعات الأمر بالعروف والنهي عن المنكر، وهي منتشرة وبكثرة في أرجاء إمارة أفغانستان الإسلامية كافة.
شريط من الذكريات مرّ في ذهني، طوال طريق العودة من العاصمة «كابول» إلى الحدود الباكستانية ومنها إلى مطار القاهرة الذي لم أصدق أنني قد وصلت إليه حتى الآن.
رحلة طويلة شاقة وشائكة في الوقت نفسه..
أحداث كثيرة متلاحقة، مشاهد حُفرت في ذاكرتي.
أعتقد أنني لن أنساها طال العمر أم قصر، أوضح أن أفغانستان ليس البلد الذي تعبر إليه بسهولة، وتستطيع أن تستوعبه وتدرك أحداثه في أيام، لكي تترك أراضيه وأنت راض عن نفسك وعن عملك بنسبة ١٠٠٪.. وإذا دخلت الأراضي الأفغانية معتقدًا أنك ستجيب عن تساؤلات وتحللها وتفسرها، فإنك ستخرج كما دخلت، ربما تضيف بعض المعلومات أو تنقل بعض الانطباعات وكثيرًا من الصور والمشاهد، لكنك صدقني ستفاجأ بالفشل الذريع في تفسير وتحليل واستيعاب كثير من الأمور والأحداث، أزعم بأن لدي قليلًا من الخبرة فيما يخص موضوع أفغاستان، تلك البؤرة التي كانت وما زالت وأصبحت نقطة غليان محورية في القارة الآسيوية.
قليل من الخبرة وكثير من المتابعة جعلاني أتخذ قراري بخوض تلك المعركة الضارية، ليست معركة في قلب الأحداث بقدر ما هي معركة مع المعلومات والمشاهد والصور، التي سأحاول نقلها والتعبير عنها عبر سطوري المقبلة التي كدت أن أفقد فيها حياتي وزميلي المصور.

سطور نحاول فيها أن نجيب بالكلمة والصورة عن العديد من الأسئلة، مجموعة من الزيارات والحوارات التي أجريناها من قلب الحدث، لعلها تساعد القارئ، في التعرف إلى وجهة نظر أخرى. أو تؤكد وجهة نظره الخاصة به، أو لعلها تفيده في معلومة ما أو لا تفيده من الأساس.

١٩

عودة إلى البداية

عرفنا طريقنا إلى أفغانستان في الزيارة الثانية. لم نعانِ في الحصول على التأشيرة مثلما عانينا في رحلتنا الأولى، وببساطة أستطيع القول بأننا قد حصلنا على تأشيرة دخول إمارة أفغانستان الإسلامية من قنصلية حركة *طالبان* في مدينة بيشاور الباكستانية. وكالعادة ارتديت الزي الباكستاني الذي لا يظهر سوى الوجه والقدمين. أطلق زميلي المصور محمد مسعد لحيته، وتحصّن بتصريحات التصوير التي منحها له قنصل حركة *طالبان* في باكستان مولاي نجيب الله. انطلقنا بالسيارة إلى بوابة طورخم، التي تربط بين الحدود الباكستانية والأفغانية، وحصلنا على ختم الخروج من باكستان ثم ختم دخول أرض الإمارة، عبرنا البوابة فاصبحنا أخيرًا هناك.

لم يتركنا رجال حركة *طالبان* وحدنا منذ اللحظة الأولى التي دخلت أقدامنا فيها أرض الإمارة.

اصطحبنا مرافقان استقلا معنا السيارة المتجهة إلى مدينة «جلال آباد» أولى المدن التي تستقبلك بهدوئها الثقيل في أفغانستان، ثلاث ساعات قطعناها من بوابة طورخم الأفغانية إلى مدينة جلال آباد.

لم تظهر آثار القصف الأمريكي، كل شيء في محله، أستطيع أن أدرك ذلك خصوصًا أن زيارتي الأولى إلى الأراضي الأفغانية لم يمض عليها سوى أشهر فقط.

الهدوء، يسود المدينة هدوء غالبًا ما يختلط بتوجس. لم يلفت نظري سوى الشاحنات المحملة بالمواد التموينية، والتي تقطع الطريق من باكستان إلى العاصمة «كابول»، ومنها إلى بقية القرى والمدن الأفغانية. قبل أن ندخل مدينة «جلال آباد» بنحو ٣٠ كيلومترًا، شد انتباهي آلاف الخيام التي نصبت في العراء وآلاف الوجوه الصغيرة الحافية، ولافتة كتبت باللغة العربية بالبنط العريض *مخيم حصير شاهي لمتضرري الحرب الجديدة* في أفغانستان.

على الفور طلبت من مرافق حركة طالبان الذي كان يصحبنا مثل ظلنا تمامًا، أن نذهب في زيارة سريعة للمواطنين الأفغان ساكني المخيم ونقوم بتصويرهم، رفض الرجل متعللًا بأنه يجب علينا أخذ موافقة المخابرات الطالبانية في *جلال آباد*.

قلت له:

- *وكيف نأخذ الموافقة؟*.

- *علينا بالذهاب لمقابلة رئيس المخابرات وهذا سيستدعي وقتًا*.

- *أظن أن لدينا وقتًا كافيًا لقد قطعنا هذا المشوار الطويل من أجل هؤلاء المتضررين، وليس لكي نسمع كلمة «ممنوع»، نرجو أن تكونوا أكثر مرونة إذا كنتم بالفعل تريدون توصيل الصورة كاملة، وعلى حقيقتها للدول الأخرى*.

يبدو أن حديثي كان كفيلًا بإقناعه بالذهاب مباشرة إلى المخابرات الطالبانية في مدينة جلال آباد، ومقابلة رئيسها الذي اصطحبنا إلى مخيم حصير شاهي، لنرى ونرصد وننقل أحوال المتضررين الذين فروا من القنابل والصواريخ الأمريكية التي تدك العاصمة كابول يومًا بعد يوم.
ما إن دخلت السيارات مجال المخيم، حتى خرج آلاف المواطنين رجالًا ونساء وشيوخًا وفي مقدمتهم الأطفال.. ويبدو أنهم قد عرفوا أننا صحفيان بمجرد أن بدأ *فلاش* الكاميرا يضيء أنواره في ظلمة الليل الذي بدأ يسدل ستائره علينا.
مظاهرة ساخنة لدرجة الغليان، هذا هو أول انطباع ينتابك عندما ترى آلافًا مؤلفة من البشر تهتف بصوت واحد منظم *الموت لأمريكا*.. *الموت لبريطانيا*.. *الموت لبرويز مشرف.. الحياة لأسامة بن لان* *يحيا الملا عمر*.
أصوات متداخلة وعرق متصبب من الوجوه، وعيون جائعة إلى حد الشراسة، وحرمان تنطق به الأجساد المنهكة، كان من المستحيل أن أتكلم مع أحد منهم إلا بعد أن تهدأ تلك الثورة العارمة التي اشتعلت في أرجاء المخيم.
رجل كهل اصطحبني جانبًا وعرفني بنفسه، وهو يتكلم اللغة العربية بطلاقة:
*أنا مولوي محمد يونس شريفي، مسؤول المهاجرين الأفغان في حصير شاهي، يعيش هنا نحو ٤٠٠٠ أسرة هاجرت من «العاصمة كابول» وقندهار، أرجاء أراضي القرى والمدن الأفغانية كافة، حاولوا الفرار إلى باكستان عبر حدود طورخم، ولكن السلطات الباكستانية رفضت قبولهم لينضموا إلى إخوانهم اللاجئين من الأفغان المقيمين منذ سنوات في مدينة «بيشاور».
فأقامت حركة *طالبان* لهم هذه المخيمات في العراء من بعض مساعدات هيئة الإغاثة الإسلامية التي تنتمي إلى رابطة العالم الإسلامي*.
لم أهتم كثيرًا بالحديث مع الرجل، فقد كانت عيون المواطنين تناديني، فقط طلبت منه أن يترجم لي حديثهم من *البشتو* إلى العربية.
الحديث معهم بصورة منظمة أمر يرقى إلى عالم المستحيلات.. تصور ما يقرب من ٥٠٠ فرد يتكلمون في وقت واحد وبلغة لا أفهمها. حاول مسؤول المهاجرين مولوي شريفي أن ينظم الكلمات فجاءت كما سأنقلها عشوائية، ولكنها معبرة وموجزة:
*الطائرات الأمريكية ضربت مساكننا وقتلت أبناءنا، ليس صحيحًا أن أمريكا تضرب مواقع طالبان، إنها تضربنا وتستهدفنا.
أتيت من مدينة قندهار، سيرًا على الأقدام أنا وزوجتي وأبنائي. لسنا إرهابيين لكن أمريكا هي الإرهابية، يضربوننا بالقنابل والصواريخ، يقتلوننا باليد اليمني، ويرمون لنا الأكل والغذاء، نحن لا نريد أغذيتهم بالعكس نأخذها ونحرقها وندوس عليها بأقدامنا. نحب أسامة بن لادن وسندافع عنه حتى لو مات كل من يعيش على أرض أفغانستان، يحاربوننا حرب الجبناء.. يقصفوننا من طائراتهم الكافرة ليست لديهم القدرة على الدخول لنا برًّا لأنهم يعرفون أنهم

لو فعلوها سنبيدهم*.
أصبح الظلام حالكًا.. وساد السواد كل شيء، اللهم إلا بعض البطاريات الصغيرة التي كان يحملها رجال *طالبان*، الذين أمرونا بضرورة المغادرة والذهاب إلى الفندق قبل بدء موعد حظر التجول.
ليلة هادئة قضيناها استعدادًا للسفر إلى كابول صباح اليوم التالي. عشر ساعات هي مدة الانتقال من جلال آباد إلى كابول.. طريق شديد الوعورة بين أحضان جبال أفغانستان الشاهقة، لم يكن غريبًا عليّ فقد سلكت الطريق نفسه في الرحلة الأولى. وصدقني منذ لحظة قراري بالسفر لم أحمل هم القصف والقتل والموت، بقدر هم هذا الطريق الذي أصاب فقرات ظهري بآلام شديدة عولجت منها بعد رحلتي الأولى إلى أفغانستان، وها أنا في انتظار آلام جديدة.
وأخيرًا وصلنا إلى كابول العاصمة الأفغانية، كنت أظن أنني سأدخل إلى «كابوس، وليست كابول» سأجدها مدينة للأشباح.. الشوارع خاوية على عروشها. وأماكن الهدم والدمار لا تعد ولا تحصى..
حين بدأت السيارة تدخل قلب العاصمة في اتجاهها إلى وزارة الخارجية الطالبانية، كانت المفاجأة التي نزلت عليّ كالصاعقة. الحياة في كابول تسير بشكل هادئ، وطبيعي والشوارع مزدحمة تنبض بالحياة، المحلات التجارية مفتوحة على مصراعيها، الباعة الجائلون يفترشون الأرصفة في محاولة لبيع الهواء. الخضار بأنواعه والفاكهة بأشكالها، السيدات اللاتي ارتدين *الشادوري* يسرن هنا وهناك وما زلن يفاصلن في الأسعار مع الباعة، محلات الورد وتزيين كوشات الفرح للعريس والعروس، سيارات وتاكسيات وازدحام، هي الحياة ببساطة.
سألت نفسي: أين أنا؟ هل أخطأنا الطريق ولم ندخل إلى العاصمة كابول وذهبنا إلى عاصمة أخرى في دولة مختلفة؟ هل وصلت إلى موقع الأحداث والحرب الطاحنة الدائرة؟ أين القصف الأمريكي الذي لا يرحم سكان العاصمة كابول؟
هل ما تنقله مختلف وكالات الأنباء والقنوات الفضائية العربية والعالمية أمر مبالغ فيه؟
أسئلة تكاد أن تلتهم رأسي، وأذني في حاجة ملحة لسماع صوت قنبلة أو صاروخ أو حتى طائرة تحلق في السماء، حتى أتاكد أني على أرض أفغانستان في موقع الحدث، لم أملك سوى أن أذكر كلمات أمي وصوتها وهي تقول لي: *الصبر طيب، ماتستعجليش على رزقك في الدنيا*.
توقفنا بالسيارة أمام مبنى وزارة الخارجية الأفغانية لمدة تقرب من ساعة ونصف الساعة ولا حياة لمن تنادي.
الوزارة خاوية من أي مسؤول. وزير الخارجية وكيل أحمد متوكل ترك «كابول» مع بدء الضربات العسكرية الأمريكية، حتى إن الشائعات ملأت الدنيا

بأنه قد فر هاربًا إلى باكستان أو الإمارات. لا أحد يعرف مكانه، لا جدوى إذن من الانتظار هكذا، قال لنا المرافق الذي أكمل حديثه قائلًا:
- *إن كل المسؤولين والموظفين في وزارة الخارجية منشغلون بالحرب على الجبهة*.
سألته:
- *وماذا عن برامج عملنا، التي من المفترض سيشرف عليها مسؤولو الخارجية؟*.
- *لا داعي للقلق ما دام قنصل حركة طالبان في بيشاور قد منحكما التأشيرة وتصاريح التصوير، فمن الغد سيبدأ العمل من وزارة الخارجية إلى *الإنتركونتيننتال**. الفندق الوحيد في العاصمة الذي تتعامل معه الوزارة والذي أقمنا فيه مجبرين في الرحلتين.
هذا الفندق هو معقل المراسلين والصحفيين من أرجاء العالم كافة، كان معنا فريق تلفزيون أبو ظبي، ومراسلو شبكة التلفزيون العربية C. N. N،B. B. C والـ AN. N.
لم نسترح ولم نهدأ، فقد طلب مقابلتنا نقيب الصحفيين والمتحدث الرسمي لحركة طالبان بوزارة الإعلام الملا حنان همت.. والذي عقد لنا مؤتمرًا صحفيًّا ليقول لنا الكلام التالي:
*نرحب بكم صحفيين مسلمين عربًا، من أرض القاهرة، ومن جريدة الأهرام التي نسمع أنها أكبر جريدة في الشرق الأوسط، نقدر لكم المشوار الطويل الذي قطعتموه لكي تكونوا معنا في قلب الأحداث، لتنقلوا الحقيقة لكل الشعوب العربية، ولكن عليكم الحذر ليس من القصف الأمريكي فقط ولكن من المواطنين المدنيين الذين يكرهون الأجانب، ويتعاملون معهم على أنهم أعداء، لذلك عليكم الآن بحماية أنفسكم وعدم الاختلاط كثيرًا مع فئات الشعب، ونحن سنقوم بتعيين مرافق وحارس يحمل السلاح سيلازمكم في كل جولاتكم في العاصمة كابول. ولكم أن تعلموا أننا قبضنا على العديد من الصحفيين الأجانب بتهمة التجسس على حركة *طالبان*، فسلطاتنا حذرة جدًّا*.
ختم الرجل حديثه دون أن يفكر حتى في سماعنا، وإلى هذه اللحظة لم أفهم ماذا كان يقصد الملا همت من حديثه عن تجسس الصحفيين، وكراهية الشعب الأفغاني للغرباء، خصوصًا أني لم أشعر لحظة واحدة بهذه الكراهية في مخيم حصير شاهي، ولكني أحسست أنها حجة أو مبرر لوجود المرافق والحارس ليس لمرافقتنا ولكن لمراقبتنا.
لم تر عيني النوم الليلة الأولى في كابول، فبعد أن أطفئت أنوار العاصمة وأنوار الغرف، وكان ممنوعًا علينا حتى أن نوقد شمعة، وبمجرد أن وضعت رأسي على الوسادة بعد يوم شاق من السفر، إلا وبدأ صوت القنابل مدويًا وكأنه في غرفتي بل بجانبي على السرير، قصف لا يوصف بلا هوادة أو رحمة،

قصف يطغى بالتأكيد على صوت المدافع المضادة للطائرات التي تخص مدافع حركة *طالبان*. كم هي مسكينة تلك المدافع.. لا أعرف لماذا أشفقت عليها وقلت.. «تروح فين يا صعلوك وسط الجبابرة*!
شغلني طوال الليل وحتى الصباح أسئلة: ترى ما حصيلة هذا القصف الأمريكي العنيف هذا اليوم؟ كم روحًا زُهقت وأنا نائمة دافئة في فراشي؟ كم مبنى دمر بما فيه؟ وجه الطفل أم جسد المرأة أم قلب الرجل، أم أنهم كلهم قد تحولوا إلى أشلاء هامدة؟

٢٠

إغاثة الأشباح

طول الطريق إلى الأماكن التي تم قصفها وتدميرها من قبل الطائرت الأمريكية، وكلمات الرئيس الأمريكي بوش ترن في أذني؛ عندما أعلن أكثر من مرة أن الهدف من ضرب أفغانستان هو دك مواقع حركة *طالبان* العسكرية. تعجبت من الهدف المعلن وتساءلت إذا كانت هذه نوايا أمريكا في التخلص من الحركة وأسامة بن لادن فهل يتم قصف وتدمير منازل المدنيين من الأفغان بطريق الخطأ؟

هل تم تدمير ٣ مدارس في مدينة قندهار ومدرستين في كابول أثناء الدراسة وفي عز النهار بطريق الخطأ؟

وماذا عن المستشفيات الخمسة في قندهار ومبنى وزارة الصحة ومكتب الهلال الأحمر الأفغاني، ومستشفى في مزار الشريف.. ومصنع للرخام في طريق جلال آباد كابول، ناهيك عن «سد كاجيكي» في قرية هيلمان بجانب مدينة قندهار، ويعد أكبر سد من السدود في أفغانستان وعن طريقه تمتد الكهرباء إلى داخل الأراضي الأفغانية؟ وماذا أيضًا عن تدمير قرى بأكملها منها على سبيل المثال قرية «شاه أغا» في قندهار و«قرية خاطر» في كابول والتي أبيد سكانهما بالكامل؟! هل كل هذا القصف والدمار حدث بطريق الخطا.. أم أن نوايا أمريكا والتي دائمًا ما تكون غير معلنة تستهدف إبادة الشعب الأفغاني؟

وصلنا إلى مستودعات الصليب الأحمر التي كانت تحمي مواد الإغاثة، والتي كان من المفترض أن تصل إلى الشعب الأفغاني في فصل الشتاء القارس، وصولنا إلى هذا المكان كان كفيلًا بأن يؤكد نوايا أمريكا بل ويجعلني في حالة من الصمت والحزن والاستفزاز. أيضًا لم تسلم مستودعات الصليب الأحمر من القصف الأمريكي العنيف، ففي الأسبوع الأول من بداية حربها على أفغانستان قصفت الطائرات الأمريكية مخازن الصليب الأحمر بـ٨ قنابل الواحدة وزنها ١٥٠٠ رطل.

لك أن تتخيل معي المشهد المأساوي. مكان القنابل حفر الأرض كأنها بقايا زلازل وبراكين. ولكي أصل إلى مكان الدمار داست قدماي على أطنان من القمح والأرز والزيت ملقاة على الأرض وتفحمت. لك أن تتخيل أيضًا أن النيران ما زالت مشتعلة في آلاف من صفائح الزيت، رغم مرور ثلاثة أسابيع على قصف مستودعات الصليب الأحمر. إحساس مؤلم وقميء، عندما تدوس بقدميك على نعم ربنا سبحانه وتعالى.. ولكن مجبر أخاك لا بطل.. تلاحقت الأسئلة: ما الهدف الحقيقي وراء قصف الطائرات الأمريكية لمستودعات الصليب الأحمر، التي تحمل أطنانًا من المواد الغذائية للشعب الأفغاني؟ هل كان هذا القصف مصادفة أم أنه رغبة قاتلة ومجرمة في تجويع الشعب

الأفغاني؟
يدمرون مستودعات الأغذية، ويضربون المدنيين ثم يلقون لهم بالغذاء كمساعدة من الأمريكان الأبرياء، الذين تملأ قلوبهم الرحمة. شيء في غاية الغرابة والاستفزاز.. حتمًا أصبت بحالة من الغيظ والشجن والحزن، حالة دفعتني إلى الاختناق.. ليس من رائحة الزيت المحروق الذي تشتعل فيه النيران إلى لحظة زيارتي له بل الاختناق من الظلم والعبودية بل والعنصرية أيضًا.
لم أقوَ على البقاء في مستودعات الصليب الأحمر أكثر من ذلك، ولم أطلب الحديث مع أحد، ولم أفضل سماع شهود العيان، فالمأساة تتحدث عن نفسها. مأساة تسكت الألسنة وتنكس الرؤوس.. لا أعرف لماذا رأيت أمامي محلات المأكولات الأمريكية السريعة مثل البيتزا والهامبورجر، ولمحت مخيم «حصير شاهي، والأطفال الحفاة العراة، والنساء اللاتي لا يجدن لقمة العيش لم تفارقني الوجوه الصفراء والأجساد النحيلة المنهكة».
مشهد لا تملك أمامه سوى أن تقولها من قلبك عاليًا *حسبي الله ونعم الوكيل*.
كل شيء في «كابول» ينطق باسم الدم والدمار، كل شيء هناك يشير بأصابع الاتهام إلى الطائرات الأمريكية. «قرية خاطر» في قلب العاصمة كابول أبيدت بسكانها، بلا مبالغة لم أجد أحدًا من السكان أتحدث معه.
لا شيء في القرية سوى بقايا منازل مدمرة.. ورائحة الموت والدمار تخيم على المكان، فقط كهل لمحته يرمقني من بعيد، هرولت إليه لأتحدث معه، لم تجبني سوى دموعه التي انهمرت فكادت تغرق الأرض المتشققة تحت قدميه الحافيتين. آثرت الصمت، تركني وجلس متربعًا يقرأ الفاتحة على القبور الجماعية التي تقف شاهدة على أولى حروب القرن.

٢١

أين رجله اليمنى؟

40 كيلومترًا من العاصمة إلى إقليم قاراباغ، الذي تعرض لقصف أمريكي عنيف مساء الليلة الماضية. ذهبنا لنرى ونرصد وننقل رائحة الدماء.. ومشاهد الدمار. ذهبنا لنقف أمام الموت وجهًا لوجه.

ساعة ونصف الساعة في طريق لا يختلف كثيرًا عن ذلك الذي يربط بين «جلال آباد» و«كابول». إن لم يكن أكثر سوءًا.

ساعة ونصف الساعة والطيران الأمريكي يحلق بضراوة فوق رؤوسنا في خطوط دائرية.. بالتأكيد يقوم بتصوير المناطق التي سيتم ضربها وتدميرها بعد ساعات قليلة.

استقبلنا إقليم *قاراباغ*، الذي يشبه إلى حد كبير أحد نجوع صعيد مصر *الجواني* بحالة من الهدوء القاتم المقبض. لا أحد في الشوارع الترابية الضيقة سوى بعض الأطفال الحفاة الذين تغطي أجسامهم النحيلة بعض الملابس المهلهلة.

حين دخلت سيارتنا في قلب الإقليم، جاء الصراخ والنحيب عاليًا من كل مكان حولنا. انتبهت وكنت قد رحت قليلًا من الوقت في حالة من التساؤل؛ عن حالة القائد الأمريكي الذي يلقي بقنبلة أو صاروخ من طائرته وهو يعرف تمامًا أنها ستقتل أبرياء وتبعثر جثث أطفال، ألا يرى هذا المشهد أمام عينيه.. ألا يفكر ولو لثانية واحدة أن يده ستهدر أرواحًا وتنثر دماء؟

مشهد الدمار ورائحة التراب المنبعثة من المنازل الصغيرة، التي باتت أكوامًا من الطوب كان كفيلًا بأن يلهب العين إلى حد الاحمرار.. تنزل دموعك فلا تعرف إن كانت دماء أم تلك التي تترقرق من وقت إلى آخر في حدقتيك.

اكثر من ٢٠٠ منزل دمر تمامًا. ترى كم جثة هامدة خرجت من تحت أنقاض تلك الأكوام من التراب؟ وكم إنسانًا قدر له أن يدفن تحت الأنقاض؟

شيء لا يمكن أن يتصوره عقل.. فكر قليلًا وتخيل معي الدمار الذي رأيته أمام عيني، ستجد نفسك في مثل حالتي تمامًا، صمت وذهول ودموع متحجرة ترفض أن تنزل على الخد، فتصيب عينيك بحالة من الحرقان الشديد. صوت الصراخ والنحيب كان كفيلًا بأن يخرجني من تلك الحالة، نظرت تجاه الصوت فوجدته منبعثًا من أنقاض منزل فقير، لم يبق منه سوى غرفة واحدة صالحة بعض الشيء لوقوف قدم فيها. جريت لاهثة فإذا بما يقرب من عشر سيدات يرتمين على التراب يصرخن وينتحبن يخبطن على صدورهن، لم أفهم ما يقلن من كلمات فهن يتحدثن *البشتو* فقط. لمحت كلمة أمريكا واخترقت أذني كلمة أسامة بن لادن. قبل أن أتكلم كنت على يقين بأن أقرب الأقربين لهن قد فاضت روحه ليلة أمس والحق لم أعرف كيف أبدأ؟

مرافقي الذي يتكم اللغة العربية بصعوبة، كان له الفضل في أن أفهم ماذا

حدث بالضبط، ويا ليتني ما فهمت؛ لأن تلك المأساة التي سأرويها ظلت تلاحقني طوال الرحلة إلى لحظة كتابة تلك السطور.
اقتربت من شيخ هادئ، ترجم لي المرافق حديثه قائلًا:
- *ابني الوحيد، أخذوه منى بعد 28 عامًا، انتظرت يوم زفافه كثيرًا بعد أن درس بكلية الطب في إحدى الجامعات الباكستانية. تحملت فراقه عني سنوات، عندما قرر أن يكمل تعليمه في باكستان، أتى إلينا ليكمل حياته ويكمل نصف دينه، ورغم القصف والظروف والحرب التي نمر بها قرر الزواج من ابنة عمه التي اختارها قلبه. تزوج منذ يومين فقط ورغم حظر التجول في الشوارع والظروف حققت أمنية والدته وأقمت له فرحًا*.
صمت الرجل وراح في حالة هيستيرية من البكاء. آثرت الصمت ولكنه راح يكمل كلامه مع نحيب متواصل قائلًا:
- *تزوج منذ يومين وجهزت له غرفة في منزلي، كانت الزغاريد تملأ أرجاء الإقليم كله، رغم القصف المتواصل الذي كنا نسمعه عن بعد، ومنذ ليلة الفرح تركنا المنزل له لكي يقضي وقتًا سعيدًا مع زوجته، ذهبت أنا وأمه إلى أحد أقاربنا في القرية المجاورة، وكان من المفترض أن نأتي إليه لنبارك زيجته أمس، أتيت فوجدت القرية بأكملها كوم تراب.. جريت كالمجنون إلى المنزل فوجدته هو وزوجته ولكن تحت الأنقاض، حتى جثته تهشمت، دفنته ناقصًا رجله اليمنى، لن أرتاح إلا بعد أن أجدها وأدفنها معه في قبره*.
انهار الرجل وانهرت أنا أيضًا.. لم أتحمل المشهد الذي يصفه، أخذ بيدي وأدخلني إلى غرفة امتلأت بالسيدات.. «أم العريس» راحت في نوبة هيستيرية من الضحك والبكاء وتقبيل التراب، والسيدات حولها يصرخن ويخبطن على صدروهن. العبارات ليست مفهومة، ولكن أحاسيس سرعان ما تقتحم صدرك وتجعلك تشعر بالعجز والحيرة، أحاسيس جعلتني لا أقوى على الوقوف على قدمي، ارتميت جانبًا ورحت في حالة من البكاء. وكأن الرجل أخ أو أب لي.
دعوت معهم «حسبي الله ونعم الوكيل».. وقلت بحرقة *تسقط أمريكا*.
طوال الطريق إلى «كابول» لم أملك سوى قراءة الفاتحة على أرواح آلاف الأفغان، الذين حصدتهم الطائرات الأمريكية المجرمة من مأساة إقليم قاراباغ.. إلى مأساة المستشفيات في «كابول».. الهم واحد والألم مشترك.
جولة مؤلمة وسوداء بين عنابر الجرحى والمشوهين من الأطفال والنساء والشيوخ، الذين يرقدون في المستشفيات ليكونوا شهودًا على ما تفعله الأيادي الأمريكية في المدنين الأفغان، إدانة صريحة ومباشرة وكاملة للرئيس الأمريكي بوش.
مستشفى دي ولا قبر؟ هذا هو الانطباع الذي يقتحمك عندما تدخل بقدميك إلى باب المستشفى الوحيد في كابول، الفقر الضاري والبؤس
وقلة الإمكانات الطبية تملأ أرجاء المكان، بدءًا من طرقات المستشفى،

مرورًا بملابس الأطباء والممرضات وحتى ملاءات السرير التي اقترب لونها من اللون الأسود بدلًا من الأبيض.
حقن الجلوكوز التي تتعلق في عروق المرضى لتغذيتهم، حتمًا تشعر بأنها تمتص ما تبقى من دمائهم الممصوصة. لم يفاجئني المستشفى بل على العكس جاء عند توقعاتي تمامًا.. بلد شعبه يموت من الفقر.. والضرب والقصف.. ولا يجد حتى لقمة العيش، طبيعي جدًّا أن تكون الخدمة العلاجية بهذا المستوى.
أساسًا نحمد الله أن هناك مستشفى من الأصل، وبعض الحقن وأدوية حتى لو كان بدائية. اخترت أن تكون أول جولة لي في عنابر الأطفال الجرحى، براعم صغيرة لا ذنب لها هذا ذراعه مشوهة، والآخر راح في غيبوبة كاملة بعد تشويه وجهه، والثالث قطعت قدماه فكان عليه أن يعيش عاجزًا طوال العمر، ومحمد زيان، أول طفل اقتربت منه، جثة صغيرة هامدة، الدليل أنه ما زال على قيد الحياة هو أنفاس صدره غير المنتظمة. في منطقة هاجيكاك كان يركب مع أسرته سيارة في محاولة للفرار من كابول، إلى مدينة «جلال آباد» قصفت الطائرات الأمريكية السيارة التي يركب فيها..
ماتت كل أسرته ولم يبق سواه.. عندما سألت الدكتور نجيب الله مرافقنا داخل المستشفى عن حالته، أجابني بأنه *لا أمل في علاجه، ومن المنتظر أن يلفظ أنفاسه الأخيرة خلال الساعات المقبلة*. تخيل أكتب تلك السطور وأنا على يقين بأن هذا الطفل قد فاضت روحة البريئة لله سبحانه وتعالى.
إحسان الله طفل عمره ٨ سنوات، يعيش الآن بقدم واحدة بعد أن قطعت قدمه اليسرى، اقتربت منه وسألته:
- *ماذا حدث لك؟*.
أجابني بحزن وبراءة عبر المترجم:
- *كنت واقفًا في الشارع ألعب مع أصحابي بعدما خرجت من المدرسة، ألقت طائرة لعبة تحت رجلي أخذتها وبعدما أمسكتها انفجرت وأطلقت صوتًا قويًّا. بعدها وجدت نفسي على السرير هنا*.
سألت د. نجيب الله عن تلك الطائرة، فأجابني: *الطائرات الأمريكية تلقي بلعب صغيرة للأطفال على شكل سيارات وأحيانًا على شكل بسكوت وشيكولاته وما إن يمسك بها الطفل بيديه تنفجر فيه*.
السرير الآخر ملقى عليه طفل يدعى *نيكولاي*. قال إنه التقط بالفعل شيئًا أشبه بالسكويت وما إن أمسكه حتى انفجر فيه.
كدت أخرج من عنبر الأطفال، لولا طفل لا يتجاوز عمره ٥ سنوات مصاب في يده اليسرى ورأسه مربوط حتى عينه بالشاش.. فاجأنا جميعًا عندما قرأ بصوت عال الآيات الأولى من سورة البقرة. وقفنا جميعًا ذاهلين وسرت القشعريرة في جسدي. أحسست أنه يقرأ القرآن وكأنه يخاطب ويناجي الله، يطلب منه العون والمساعدة على ما هو فيه.

عنبر النساء من الأرامل والشابات والمتزوجات رائحته لا تطاق.
لا أعرف إن كانت رائحة البنج أم الدواء.. أم تلك المنبعثة من أكوام القمامة التي تناثرت هنا وهنالك.
خمار أرملة جرحت في رأسها عندما تعرض منزلها إلى قصف أمريكي عنيف، نقلت إلى المستشفى ولا تعرف إن كان أولادها على قيد الحياة أم لا؟
عندما سألتها عن رسالة ما توجهها، قالت: *ربنا يرمي في قلوب الأمريكان الرحمة ويتركوننا لحالنا*.
وتابو أصبحت أرملة بعد أن مات زوجها وابنها الأكبر نتيجة القصف الأمريكي على منزلها، تقول: *لا أستطيع الحركة لقد أصبت بالشلل، وصدقينى لا أريد أن أخرج من المستشفى فلا مأوى لي ولا أسرة*.
وأنا في غرفة النساء لاحظت وجود ممرضات يعملن، والأعجب أنهن لا يرتدين *الشادوري*، تكلمت مع واحدة منهن تدعى فرحة اصطحبت ابنها الصغير معها أثناء عملها وسألتها: *أنت تعملين ممرضة ولا ترتدين *الشادوري* ألا تخشين من قوانين حركة *طالبان*؟*
أجابتني:
- *في مثل هذه الظروف سمحت لنا الحركة بالعمل كممرضات، خصوصًا أني قد درست في معهد التمريض، نحن في ظروف حرب والجرحى يتساقطون يومًا بعد يوم*.
تعجبت وتذكرت رحلتي الأولى إلى أفغانستان، عندما علمت أن طالبان قد أغلقت المستشفى الإيطالي في كابول؛ لأنهم اكتشفوا أن السيدات يعملن ويرتدين الزي الأبيض للممرضات.. الآن المسألة اختلفت، هل الظروف الحالكة التي يمرون بها قد ساهمت في تغيير أفكارهم؟ وهل هذا التغيير جاء متأخرًا.. أي بعد فوات الأوان؟ خرجت من باب المستشفى وكأنني عدت إلى الحياة مرة أخرى، بعد أن انتابني إحساس أنني دخلت القبر، رأيت أهوالًا وأمواتًا ثم كتب الله لي أن أتنفس الصعداء مرة أخرى.. لم أنم ليلتي كالعادة، ليس من القصف العنيف وصوت الصواريخ والقنابل، ولكن من مشاهد الموت والدمار، والدماء ونحيب الرجال وخبط السيدات على صدورهن.

٢٢

التهمة.. تصوير الفساد

أيوب الهرمزي، عراقي الجنسية ومتزوج من أفغانية، يعمل معاونًا لمنظمة الأغذية العالمية التي تمولها الأمم المتحدة داخل كابول، تردد علينا كثيرًا في الفندق وطلب نقودًا لكي يصحبنا إلى مكتبه في شارع وزيرخان، لكي نصور الأفغان وهم يفترشون الشوارع انتظارًا لتوزيع المساعدات الغذائية عليهم.

لم نوافق، فقد طلبنا رسميًّا من مرافقنا أن يصحبنا إلى هناك.

ورغم أننا ذهبنا بشكل رسمي، فإن المخابرات الطالبانية اعتقلتنا فعشنا في استضافتها وقتًا لا بأس به.

بسهولة شديدة اصطحبنا المرافق والحارس إلى شارع وزيرخان، أهم منطقة يسكنها أثرياء كابول من التجار بل يطلقون عليه شارع السفارات، لأن كل سفارات الدول التي أغلقت أبوابها عقب الحرب، تقع في هذا المكان.

البشر مرصوصون على الأرصفة وفي الطرقات، لدرجة أنه أصبح من رابع المستحيلات أن ندخل بالسيارة، نزلنا أنا وزميلي المصور في محاولة للسير وسط الناس للكلام معهم وتصويرهم.

عيون الناس وملامحهم تنطق بالجوع. سيدة رفعت *الشادوري* من على وجهها عندما بدأت الحديث معها عن طريق مرافقي الذي ترجم لي كلامها:

- *منذ عشرة أيام ونحن نتردد على هذا المكان، في انتظار المواد الغذائية التي يقولون عنها ولا فائدة. اليوم أعلنوا صباحًا أننا سنأخذ بعض الدقيق والأرز والسكر، 8 ساعات وأنا واقفة على قدمي وأطفالي في المنزل وحدهم، لا نريد أن نملأ بطوننا ولكننا نريد فقط أن نسد جوعنا في ظل هذا الشتاء القارس*.

رجل كهل كان ينظر لي بعين جاحظة، لا أعرف لماذا أحسست أنه نسي شكل الطعام، تكلم كثيرًا وبحرقة وبدموع لدرجة أن مرافقي لم يستطع اللحاق بترجمة ما يقوله، لكنه بلا مبالغة قالها صراحة:

- *نحن ليس لنا أي ذنب في وجود أسامة بن لادن، والملا عمر ليس لديه أي نوع من الإحساس والتقدير بحالتنا، هو ليس أميرًا للمؤمنين بل يصح أن يكون كافرًا، لقد كفرنا وكرهنا الدين بسببه وبسبب قرارته، لم آكل منذ يومين سوى كسرة خبز*.

بدأ صوت الرجل يعلو وبدأت دائرة من البشر تلتف حولنا، عيونهم غاضبة وجاحظة وكارهة لي.

إحساس تأكدت منه عندما صرخت امرأة في وجهي بلغة غير مفهومة، فأمرني المرافق بضرورة المغادرة، وعندما سألته ما الذي تقوله المرأة قال لي: *إنها لا تريد أن تتكلم مع الغرباء وتقول: أنتم صحفيون وظيفتكم الفرجة علينا فقط.. لماذا أتيت إلى هنا لتشاهدي الجوع والفقر، وأنت ترتدين ملابس

جيدة وتأكلين وتشربين.. نحن نكرهكم، أنتم لا تساعدوننا ولا تعطوننا شيئًا، فقط تريدون مصلحتكم، تريدون فقط أن تصورونا وتنقلوا صورنا لكل العالم، وتقولون إننا جائعون ونضرب في بعضنا.. اتركي هذا المكان وإلا ضربتك حتى الموت*.
لم أحزن من كلام المرأة.. ولم أغضب، بالعكس أشفقت عليها، فالجوع كافر كما يقولون. والفقر والبؤس والحرمان لا تعرف منطقًا.
كدنا أن نركب السيارة لننطلق، فإذا بآلاف مؤلفة من البشر تهجم عليها، تخبط بقوة تريد أن تفتح أبوابها التي حمدت الله أننا أغلقناها جيدًا من الداخل. كاد الجوع أن يقتلنا وكاد الناس أن تطبق السيارة علينا، لولا أن السائق جرى مسرعًا. ظننا أن الأمر قد انتهى فإذا بسيارة أخرى توقفنا بعد تحركنا من المكان بنحو ٥٠ مترًا، وإذا برجلين أمامنا. أحسست بأننا مقبوض علينا، وقد صدق ظني.
سألنا المرافق:
- *إلى أين نحن ذاهبون؟*.
أجابني قائلًا:
- *إلى مخابرات حركة *طالبان**.
لم نسأل لماذا.. فقط فوجئت بزميلي المصور محمد سعد يخرج فيلمًا من جيبه ويدسه في حقيبة يدي سرًّا، فعرفت أننا معرضون لمعاناة ما وسحب الفيلم ويوم طويل عريض.
وصلنا أمام مبنى المخابرات، وأمر الرجال زميلي المصور أن يخرج من السيارة ويطلع وحده لأظل أنا في الانتظار.
مرت ساعة وأنا أنتظر، لم يظهر محمد، ولم يظهر أي أحد، فقط الطائرات تحلق فوقي بصوتها المرعب. مللت من حالة الانتظار والهواجس تملكت مني. ماذا فعلوا بزميلي المصور.. خرجت من السيارة وبصوت عال قلت للواقفين من رجال *طالبان*:
- *لماذا أنا هنا ولماذا زميلي فوق؟ نحن أتينا من أجل مساعدتكم*.
قلت كلامًا كثيرًا، ولكني أحسست أنني أقود مظاهرة ويبدو أن صوتي وصل للداخل، وفي لحظات كنت أمام رئيس المخابرات الذي تحفظ على محمد وأدواته وأفلامه، وكانت الحجة أننا قمنا بتصوير الفساد وهذا أمر ممنوع..
قلت للمرافق أن يترجم ما سأقوله:

- *الفقر والجوع والحرمان أصبح صوتها أعلى بكثير من قوانين حركة *طالبان* التي تحرم التصوير.. نحن لا نقوم بتصوير نساء لكي يكن أغلفة مجلات نظرًا لجمالهن الخلاب، نحن ننقل بصورنا الحالة المأساوية التي يعيشها الشعب الأفغاني نساء ورجالًا وشيوخًا وأطفالًا، إنها الحرب يا سيدي التي انكويتم بنارها، اتركونا نساعدكم ونقدم صورة حية من الشارع للمواطن

الأفغاني الذي تروح دماؤه هدرًا..*.
لم يصدق ولم يؤثر كلامي معه إلا بعد أن سحب الأفلام منا، فحمدت الله أننا نحتفظ بها.
خرجنا من مبنى المخابرات بعد انتطار دام ساعات، أجرى فيها مدير المخابرات اتصاله مع وزارتي الإعلام والخارجية، خرجت وأنا أقول:
نساء إيه، وشادوري إيه! الناس بتموت من الجوع ولا يزالون منشغلين بعورة المرأة. عجبي.

٢٣

عدنا.. وعادت *طالبان*

ياه.. كم اشتقت بعد رحلة طويلة شديدة العناء أن أجد نفسي في غرفة الأستاذة سناء البيسي، وحنو حضنها ومعي رصيد ثمين عدنا به من قلب الحدث في أفغانستان.

ألقي برأسي على مقعد الطائرة منهكة.. متعبة لا أصدق أن ساعات فقط بيني وبين مطار القاهرة.

أتصفح إحدى الجرائد العربية التي وزعتها علينا مضيفة الطيران، يلفت نظري خبر منشور تحت عنوان: *السلطات الباكستانية تفرج عن صحفيين مصريين*.

تشدني سطور الخبر لأقرأ أسماء الصحفيين لتكون المفاجأة.. *أمل سرور ومحمد مسعد*. أصاب بحالة هيستيرية من الضحك والبكاء في آن واحد.

إلحق يا محمد هو صحيح السلطات الباكستانية اعتقلتنا وأفرجت عنا لأننا لم نحصل على تأشيرة دخول أفغانستان؟. هكذا قلت وهكذا نزل الخبر كالصاعقة على زميلي المصور.

أخرجت الجواز ونظرت جيدًا إلى تأشيرة أفغانستان التي أحملها، فلقد وصلت إلى مرحلة من الشك حتى في نفسي.

وهنا وفي نهاية الرحلة أحب أن أوضح حقيقة ما حدث.

منحتنا سفارة باكستان في القاهرة تأشيرة دخول أراضيها، تلك التأشيرة التي دخلنا بها إلى إسلام آباد، لكن التأشيرة لمرة واحدة والدخول إلى دولة أخرى وهي أفغانستان، يفرض علينا الحصول على تأشيرة باكستان

مرة أخرى من سفارة باكستان في كابول العاصمة الأفغانية، كما فعلنا في رحلتنا الأولى منذ ٦ أشهر.

دخلنا إلى أفغانستان وفوجئنا بأن سفارة باكستان في كابول قد أغلقت بعد بدء الحرب، وأنه لا وجود حتى للقائم بالأعمال فأصبحنا في مأزق لا نحسد عليه؛ لأن باكستان سترفض دخولنا إليها مرة أخرى ونحن لا نحمل تأشيرتها، لذا فقد كتب علينا البقاء والعيش في أفغانستان طوال العمر.

ولما كانت قوات التحالف الشمالي ستتحرك إلى كابول، ولما سقطت طالبان، كان علينا التصرف لأنه من الخطر الشديد على حياتنا البقاء على الأراضي الأفغانية لحظة واحدة.. اتصلت بالأستاذة سناء البيسي، رئيس التحرير، وقلت لها: - *الحقينا يا أستاذة، خرجينا من هنا، لو قوات التحالف دخلت واحنا في كابول هيدبحونا*.

قلقت الأم سناء البيسي وتصرفت على الفور، وتحدثت مع سفير مصر في باكستان وقتها د. محمود سعيد، الذي تدخل شاكرًا وتحدث مباشرة مع وزير الداخلية الباكستانية، الذي ترك أسماءنا على الحدود الباكستانية التي سمحت لنا بالدخول وأعطتنا تأشيرة جديدة للأراضي الباكستانية!

تلك هي حقيقة ما حدث، أما ما تناقلته الصحف وقتها فلا أعرف إلى تلك اللحظة من وراءه، وما كان الهدف منه، ولم ألتفت كثيرًا ولم أنشغل سوى بنقل ما رأيته من واقع إلى القارئ.
وأعترف أنه رغم مرور عشرين عامًا على تلك الرحلة التي حُفرت في ذاكرتي ما حييت، لدي رغبة جارفة في السفر والترحال إلى ذلك البلد المحمل بعلامات الاستفهام والمكلل بالهموم دومًا، خاصة في تلك الفترة التي تشهد عودة حركة *طالبان* إلى الحكم مرة أخرى. صحيح أن الوجوه القديمة اختفت، صحيح أن أمير المؤمنين وقتها فر هاربًا على موتوسيكل، وأن بقية الوزراء قد اختفوا ولا تعرف لهم طريقًا، إلا أن الوجوه الجديدة تحمل نفس الملامح، وأن العمائم التي يرتدونها هي نفس العمائم القديمة، التي تحكم العقول التي ترى أن من يتفق معها من أهل الجنة بينما المختلف فهو كافر بل وطاغوت.
في نهاية المطاف ومع ختام ذلك الكتاب لا أملك سوى أن أختم بما بدأت به؛ لا أملك سوى أن أقول إنها كانت محاولة لتقديم صورة من الواقع إليك، إن نجحت فهذا كل ما أتمناه وإن فشلت فليبق لي شرف المحاولة.